تاريخ الفراعنة
جزء أول

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والأعلام

اسم الكتاب : تاريخ الفراعنة (جزء أول)

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : الناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع ٢٠٠٤/٥٥٨٠

الترقيم الدولى

I.S.B.N. 977 - 354 - 036 - 7

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وبعـــد ،،،

هذا هو الجزء الأول من موسوعة حياة الفراعنة يتضمن تاريخ الأسر الفرعونية وهى ثلاثون أسرة وبعدها أسرة غير مصرية ، ثم يستأنف الكتاب سرد تاريخ أهم ملوك الفراعنة حتشبسوت وإخناتون وتوت عنخ آمون، ثم نستكمل فى الجزء الثانى الكلام عن الفرعون سيتى ورمسيس الأول ورمسيس الثانى باستفاضة ونتناول تاريخه سنة بسنة حتى وفاته.

وجدير بالذكر أن تولى الملكة الفرعونية حتشبسوت الحكم فى مصر تم بعد معارضة ومجاهدة منها حتى تحقق لها أن تصبح فرعون مصر وتستقل باعتلاء بعرش مصر. وهى قصة شيقة حقيقية من التاريخ المصرى، وكان توليها لعرش مصر سابقا لتولى شجر الدر بآلاف السنين.

أما اخناتون الذى يسمونه فرعون التوحيد وأول الموحدين ، فإن آدم عليه السلام كان قبله وكانت البشرية على التوحيد عشرة قرون حتى دخلها الشرك. والذى ينقله المؤرخون أن إخناتون جمع آلهة قومه فى الشمس وبهذا الاعتبار لا يكون موحداً حقيقية .

والتاريخ ملئ بالغطات والعبر وقد أمرنا الله تعالى بالسير فى الأرض والنظر فى عاقبة الذين من قبلنا وكثير من الآيات تحضنا على السير والضرب فى الأرض والتذكر والتدبر والتفكر واستعمال العقل. والفراعنة وإن كانوا على الشرك فهم قد أفضوا إلى ما قدموا غير أنهم كانوا أصحاب حضارة شامخة اتسعت لكثير من العلوم والفنون والصناعات والحرف. شقوا الترع وحفروا الآبار

وشادوا الأبنية العملاقة والمسلات الشاهقة والمعابد الضخمة العملاقة وأجروا العمليات الجراحية الدقيقة وتوصلوا إلى التحنيط الذى مازلنا نجهل حقائق حتى الآن وحفظوا الجثث آلاف السنين، وطلوا المبانى والمقابر بأطلية ظلت آلاف السنين زاهية وحتى الآن وبنوا الأهرام بدون استعمال مونة لاصقة للاحجار ورفعوا الأحجار الثقلية التى تزن مئات الأطنان بطريقة عجيبة والأهرام وأبو الهول من عجائب الدنيا السبع ، ومازلنا حتى الآن نكتشف الكثير من عجائبهم وغرائبهم وعلومهم ومعارفهم وأسرارهم ومازال الكثير من هذه الأسرار مغلق حتى الآن. وكان لهم ثقافات مذهلة حكم ومواعظ وخطب ودروس وقصص أدبى رائع مكتوبة على الأحجار والمعابد وأوراق البردى ، كما كان لهم امبراطورية عظمى شملت مصر والشام والسودان وغيرها من البلاد ، وكان لهم جيش قوى وأسطول كبير وجابوا البحار وأرسلوا السفارات وحرروا البلاد ، وكانوا يفخرون بالعدل وأداء الواجب وحماية الضعفاء وحفظ الحقوق .

تعرضوا لفترات من القوة وفترات من الضعف والاحتلال ، حكموا البلاد وساسوا العباد وكان لهم ديانة وعقائد عن اليوم الآخر والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب، ويبدو أن هذه العقائد عن اليوم الآخر والحساب والعقاب والميزان وغير ذلك كان مأخوذا عن دين سماوى غير أن هذا الدين قد حرف ودخله الشرك والأساطير والخرافات مع تطاول الأزمان .

أما بالنسبة لفرعون موسى فلم يذكر فى التاريخ الذى سجله شمبليون وبعض الكتاب يرى أن شمبليون قد أخطأ فى قراءة حجر رشيد وبعضهم يرى أن التاريخ تعمد تجاهل فرعون موسى وطمس قصته ، وقد توصل أحد الشباب إلى أن فرعون موسى مذكور فى التاريخ وأن فرعون هو اسمه وليس لقبه، وبعض المؤرخين يرى أن أوصاف فرعون موسى تنطبق على أوزوريس وبعضهم يقول مرنبتاح وبعضهم يقول أنه رمسيس الثانى وغير ذلك .

المؤلف

ملخص

تاريخ مصر القديمة(١)

تمهيـد :

تبدأ الحقبة التاريخية الحقة فى التاريخ المصرى باختراع الكتابة، ويطلق على الفترة التاريخية فى مصر القديمة الحقبة الأسرية أو عصور الأسر، وهى تستغرق الفترة الزمنية الواقعة بين سنتى ٣١٠٠و٣٣٢ قبل الميلاد على وجه التقريب. والسبب فى هذه التسمية التقسيم الذى اندرج تحته ملوك مصر فى إحدى وثلاثين أسرة، حسب تصنيف الكاهن المؤرخ مانيتون الذى عاش فى العصر البطلمى معاصرا لأول ملكين من ملوكها.

والفترة الواقعة بين سنتى ٣١٠٠ و ٢٦٨٦ قبل الميلاد تسمى العصر العتيق أو العصر الثينى، والواقعة بين سنتى ٢٦٨٦ و٢١٨١ قبل الميلاد تسمى الدولة القديمة وتشمل عصر الأسر من الثالثة إلى السادسة، وبانتهاء الدولة القديمة يحل العصر الوسيط الأول (٢١٨١ - ٢٠٥٠ ق.م). (ويسميه بعض المؤرخين عصر الاضمحلال الأول). وتشمل هذه الفترة الأسر من السابعة إلى العاشرة.

وبعد ذلك يحل عصر الدولة الوسطى الذى يشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢٠٥٠ - ١٧٥٠ ق.م)، يليه العصر الوسيط الثانى (١٧٦٠ - ١٥٦٧ ق.م). (عصر الاضمحلال الثانى) ويشمل الأسر من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة التى تدخل فيها فترة حكم الهكسوس. ويستغرق عصر الدولة الحديثة الفترة من سنة ١٥٦٧ ق.م . إلى سنة ١٠٨٥ ق.م وتشمل الأسر من

---

(١) كنوز الفراعنة ت ج هـ جيمز - ترجمة د/ أحمد زهير أمين .

الثامنة عشرة حتى العشرين. ويسمى العصر الذى يشمل الأسر من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين بالدولة الحديثة المتأخرة (١٠٨٥ - ٧١٥ ق.م).

أما الفترة من الأسرة الثالثة والعشرين (متداخلة مع السابقة) وحتى بداية العصر البطلمى فقد اصطلح على تسميتها بالعصر المتأخر، وتدخل فيها الأسرة السادسة والعشرين أى العصر الصاوى. بعد ذلك ينتهى عصر الأسر ببداية العصر البطلمى (٣٣٢ - ٣٠ ق.م). حيث يكون حكام مصر من اليونانيين. ومنذ سنة ٣٠ قبل الميلاد تصبح مصر ولاية رومانية.

وقد سبق الحقبة الأسرية عصور أخرى اصطلح على تسميتها عصر ما قبل الأسر، ظهرت فيها الأطوار البدائية للثقافة والحضارة المصرية أخذت تتطور بالتدريج.

وعموما فقد استخدم فى وصف العصور القديمة التعبيرات التى اصطلح عليها علماء الغرب وهى : عصر ما قبل التاريخ ثم العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الوسيط. وأخيرا العصر الحجرى الحديث.

عصر ما قبل التاريخ :

عاش الإنسان المصرى فى وادى النيل منذ أزمنة موغلة فى القدم. وتدل آثاره على أنه عاش فى التلال الصحراوية والمرتفعات الواقعة على حدود النيل فى مصر العليا منذ العصر الحجرى القديم. فقد عثر فى هذه الأماكن على مكاشط وأدوات بدائية صغيرة من صنع إنسان هذه الفترة. وكان شمال أفريقيا مأهولا بالسكان فى العصر الحجرى القديم. وهذا الإنسان لم يكن يعرف الاستقرار فكان يتجول فى المنطقة بأسرها وهو يحيا حياة البداوة والقنص. ولم يختلف الإنسان المصرى، لا فى حياته ولا فى آثاره، عن نظيره فى الأماكن الأخرى بأفريقيا.

فى القاعة المصرية السادسة بالمتحف البريطانى بعض المكاشط والأدوات من العصر الحجرى القديم.

وفى أواخر العصر الحجرى القديم حدث تحول ملحوظ فى مناخ المنطقة، تحولت فيها المراعى التى كان يرتادها إنسان العصر الحجرى إلى صحارى. ومن ثم هجر الإنسان مراكز الرعى والقنص، وهبط ليستقر بجوار النيل. وقد وجدت آثار تدل على حياة شبه مستقرة على شكل أكوام من مخلفات حياة هذا الإنسان اليومية بجوار البحيرات الجافة والمستنقعات. ومنذ ذلك الوقت أخذت صناعة الأدوات الطرانية فى التطور، وبدأ ظهور أدوات منها أصغر حجما، وأكثر تخصصا واتقانا، منها رءوس السهام ونوع من الشفرات المسننة التى قيل إنها استخدمت كمناجل.

والمناجل يدل وجودها على وجود محاصيل الحبوب، ولكن لا يدل وجودها عن زراعة منتظمة، فكل الدلائل تشير إلى أن زراعة الحبوب كحرفة بدأ فى العصر الحجرى الحديث. وقد عثر على مواقع إنسان العصر الحجرى الحديث فى مصر عند الحد الغربى للدلتا، وفى الفيوم ومصر الوسطى. وكان من الواضح أنهم قد ألفوا حياة الزراعة المستقرة، وعرفوا زراعة الكتان والحبوب، وصناعة المنسوجات الكتانية والسلاسل، والأوانى الفخارية البدائية ومجموعة متنوعة من الأدوات الظرانية .

المتحف البريطانى به مجموعة أدوات صوانية جمعت من موقع أثرى بالفيوم، تعتبر أهم آثار العصر الحجرى الحديث فى مصر منها: النموذج رقم ٥٨٧٠١ وهو منجل خشبى ذو شفرات ظرانية مازالت ثابتة فى أماكنها.

والنموذج رقم ٥٨٦٩٦: وهى سلة مصنوعة من الألياف ذات النسيج الدقيق.

حضارات عصر ما قبل التاريخ :

كانت معلوماتنا قليلة عن سكان مصر فى العصور السحيقة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حتى أجريت فى جبانات ما قبل الأسر فى مصر العليا بعض الاستكشافات الأثرية. فحول ذلك الوقت قام بترى وغيره من المستكشفين بالتنقيب فى منطقة نقادة التى أثرت معلوماتنا عن هذه الفترة. لذلك أطلق على نتائج التنقيب اسم هذه المنطقة، حيث وجدت حضارتان سميت المبكرة منهما باسم نقادة الأولى، والمتأخرة منهما باسم نقادة الثانية. وبعدها جرى العرف على تسمية مثل هذه الحضارات بأسماء مواقع التنقيب الأولى عنها، فهناك حضارات العمرة والمجرزة وسيمانيا بالصعيد، ولكن كل هذه الحضارات لا تعدو أن تكون مجرد مراحل من حضارتى نقادة الأولى ونقادة الثانية. أما حضارة العمرة فهى نفسها حضارة نقادة الأولى.

وأما حضارة الجرزة فهى امتداد لحضارة نقادة الثانية. ووقعت حضارة سيمانيا بكاملها داخل الفترة المبكرة للأسرة الأولى. وكانت أول حضارة كشف عنها فى مصر من حضارات ما قبل الحقبة الأسرية هى حضارة البدارى التى كشف عنها فى هذه القرية فى عشرينيات القرن العشرين. وكان رأى مكتشف هذا الموقع - جاى برنتون - أن حضارة البدارى سبقتها حضارة تاسا (نسبة إلى دير تاسا) ولكن نتائج التنقيب ترجع أن حضارة تاسا ما هى الا طور من أطوار حضارة البدارى. وقد عثر فى مقابر عصر البدارى على أدوات نحاسية تعتبر أقدم أدوات نحاسية عثر عليها فى مصر.

بعض الخرز والخواتم الصغيرة من هذه الفترة معروض فى القاعة المصرية السادسة بالمتحف البريطانى.

وفى تلك الفترة كان استخدام النحاس مازال فى مراحله المبكرة ولم يكن

صهر النحاس وصقله بصورة مناسبة قد عرف بعد. ولكن فخار عصر البدارى الذى كان ذا مستوى رفيع للغاية. وذا أشكال متنوعة أفواهها العليا مكسوة بطبقة سوداء أصبح شائعا جدا فى الفترات التالية. وكان الكثير من هذا الفخار رقيقاجدا، ومزخرفا بخطوط رقيقة منشطة. وعرفت حضارة البدارى خامات أخرى منها الصوان والعاج والعظم والحجارة. ويبدو أنهم ابتكروا طريقة بدائية لصقل الخرز من الأستيتيت . ولأول مرة فى التاريخ نجد حضارة تشكل تماثيل بشرية . (راجع كذلك النموذج ٥٩٦٧٩ فى المتحف البريطانى). وعثر فى مدافن البدارى كذلك على لوحات اردوازية كانت تستخدم فى طحن مادة داكنة استخدموها فى تكحيل العيون. ويبدو كذلك أن الأوانى الحجرية بدأ تصنيعها لأول مرة فى عصر البدارى، الذى يعتبر بحق أحد العصور التى تحققت فيها إنجازات فنية كثيرة.

تتميز فترة نقادة الأولى، التى تلت عصر البدارى، بأساليب متميزة فى تشكيل الفخاريات. فقد ظهرت أوان فخارية حمراء ذات لمعة. وهى أوان مجلوة جيدا باستخدام لمعة سوداء لذلك الغرض، حوافها سوداء، أو مطعمة بزخارف بيضاء اللون. وهذه الزخارف كانت على شكل أغصان غضة مجدولة فى بعض الأحيان، وعلى شكل مشاهد بسيطة تصور حيوانات أو تصور عملية صيدها. ولم تشتهر هذه الفترة بالأوانى الحجرية، وما عثر عليه منها كان مصنوعا من البازلت ومزينا بعروتين عند الحافة. وذا قواعد (قعر) قمعية ضيقة.

ووجدت فى مقابر تلك الفترة لوحات اردوازية بسيطة الشكل، ورءوس مقامع مستديرة الحافة من الجرانيت، وأدوات أخرى من الحجارة الصلبة منها كثير من رءوس الحراب الصوانية المصقولة التى يرجع أنها استخدمت فى أغراض طقسية. إلا أن هذه الوفرة فى رءوس الحراب قد تدل على أنها كانت تستخدم فى الصيد وربما فى الحرب أيضا.

من ذلك يتضح أن الصوان فى هذه الفترة ظل الخامة المستخدمة فى صنع الأدوات والأسلحة.

والجثث التى وجدت فى مقابر جبانات الفترة المبكرة من الحقبة قبل الأسرية - فى مصر العليا- تدل على أن العنصر المصرى فى ذلك الوقت كان رشيق البنيان، ذا وجه رقيق مستطيل. وكان الرجال يظهرون فى التماثيل الصلصالية والعاجية التى وجدت فى مقابرهم وهم ملتحون، إلا أن هذه اللحى يبدو أنها كانت لحى مستعارة. وكذلك كانوا يغطون عوراتهم مما يوحى بوجود رابطة عرقية بينهم وبين الليبيين.

وحضارة نقادة الثانية أكثر تقدما من نقادة الأولى. وقد عثر على آثارها فى مواقع كثيرة على أرض مصر. بعضصها فى أماكن تواجدت فيها حضارة نقادة الأولى قبل ذلك، مما يدل على التطور والتواصل بين الحضارات القديمة. وقد ظهر تقدم هذه الحضارة على سابقتها فى أشياء كثيرة منها الأدوات الصوانية الدقيقة، والأدوات النحاسية، والخرز المصنوع من الأحجار الصلبة، ثم فى لوحات القبور لهذا العصر.

كذلك أدخلوا تحسينات كثيرة على تصميمات المقابر، فلم تصبح مجرد حفرة بسيطة كما كان الحال فى مقابر نقادة الأولى. وبالإضافة إلى ذلك فرشوا مقابرهم بالحصر وبطنوها بالخشب لوقاية المدافن. وقد عثر فى مقابرهم على لوحات اردوازية ذات أشكال حيوانية مطعمة بعيون من خرز قوقعى مستدير، ومعها أوان فخارية ذات لون برتقالى مزخرفة باللون الأرجوانى.

ويتميز هذا العصر بالتوسع فى صنع الزهريات من الحجارة الصلبة بشكل لافت. وظهر فى هذا العصر رءوس المقامع الكمثرية الشكل، كتطور من الشكل المستدير الذى ساد الفترة السابقة. وقد استخدم هؤلاء القوم بعض

الخامات غير المحلية مثل اللازورد، مما يدل على وجود صلات تجارية بشكل أو بآخر مع آسيا فى هذه الحقبة السحيقة.

وأدى التطور المستمر فى هذه الحقبة إلى مزيد من التقدم فى المراحل المتأخرة من عصر نقادة الثانية. فظهرت المقابر الطوبية المخططة، بالإضافة إلى تحسينات كثيرة فى صناعة العدد والأدوات.

من معروضات المتحف البريطانى النموذج رقم٦٨٥١٢: وهو سكين صوانية ذات مقبض عاجى وجدت عند نهر بت، محفور عليها أشكال لبعض الحيوانات بطريقة النقش البارز المنخفض.

وليس لدينا أية معلومات موثوق بها عن التنظيم السياسى فى مصر بشطريها فى الحقبة قبل الأسرية. ويمكن بصفة عامة التوصل إلى أنه كان هناك اتحادان كونفدراليان مفككان: أحدهما بمصر السفلى والآخر بمصر العليا. كل منهما يضم عدة تجمعات تطورت فيما بعد لتكون أقاليم مصر المتحدة. ويبدو أن القوى السياسية تمركزت فى مدينتين الأولى نقادة (نوبت) فى الجنوب والهها ست ، والثانية بحدت فى الشمال والهها حورس (الإله الصقر).

وفى المرحلة المتأخرة من حضارة نقادة الثانية، أى فى أواخر الحقبة قبل الأسرية، تحدد شكل الاتحادين بصورة أوضح. فأصبح لكل اتحاد قائده الذى يلبس تاجه الخاص. ولعبت التيجان بعد ذلك دورا مهما كرمز للسلطة الملكية فى مصر فى العصور التاريخية. وكان تاج مصر السفلى هو التاج الأحمر ، وتاج مصر العليا هو التاج الأبيض . وظهرت عاصمتان جديدتان هما مدينتا بوتو فى الدلتا، وهيراكونبوليس فى مصر العليا. وكانت هذه الفترة فيما يبدو عامرة بالكفاح، الذى سجل بعضه على لوحات اردوازية جيدة الحفر، مازالت موجودة حتى الآن.

من معروضات المتحف البريطاني بالقاعة المصرية السادسة :

١- النموذج رقم ٢٠٧٩٠ لوحة اردوازية تسمى «الصيادون» يظهر بها مشهد صيد أسدين وبعض الوحوش الأخرى - قد تكون اللوحة رمزا للصراع القومى.

٢- النموذج رقم ٢٠٧٩١ لوحة اردوازية تسمى «المعركة» وعلى أحد جانبيها صورة أسد، ربما كان يرمز لأحد الملوك.

وعموما أمكن تحقيق الوحدة عندما تمكنت قوى الجنوب من غزو الشمال، فتوحد القطران على يدى ملك عرفه التاريخ باسم الملك مينا، والغريب أن مينا لم يرد إسمه على أى أثر من ذلك العصر. وهناك لوحة اردوازية ضخمة بمتحف القاهرة يظهر فيها ملك إسمه نعرمر وهو يلبس على رأسه تاجى الوجهين الأحمر والأبيض معا. وهناك شبه إجماع على اعتبار الملك نعرمر هو نفسه الملك مينا موحد القطرين. ومنذ توحيد القطرين تبدأ الفترة التاريخية فى مصر، وبالتالى الحقبة الأسرية.

الفترة المبكرة من عصر الأسوار

(٣١٠٠ - ٢٦٨٦ ق.م تقريبا)

أو الأسرتان الأوليان

بعد توحيد القطرين اتخذت إجراءات إدارية كثيرة لإعادة تنظيم البلاد، فانشئت عاصمة إدارية جديدة لمصر الموحدة، اختيرت لها مدينة منف عند ملتقى القطرين. وينسب تأسيس هذه العاصمة إلى الملك الأسطورى مينا .

ولم يصلنا سوى النزر اليسير عن الأسرتين الأوليين بعد الوحدة. فهناك نقوش على صورة حوليات بعضها فى المتحف المصرى (حوليات القاهرة) وبعضها منقوش على حجر بالرمو، وبعضها فى جامعة لندن. وتحتوى هذه الحوليات على بيانات مقتضبة، لكنها قد تفيدها أحيانا فى تحديد بعض السنوات التى يمكن ربطها بأحداث معينة. ومعظم الأحداث المسجلة فى الحوليات ذات طبيعة دينية تركز على إقامة تماثيل الآلهة. لكن بعض الأحداث المسجلة فيها ذات طبيعة إعلامية أفضل، مثل الحدث الذى سجل عن الملك جر Djer ثالث ملوك الأسرة الثانية، إذ يصف الملك بانه «قاهر سيناء». وقد أفادنا هذا الوصف فى التكهن بأن الحملات التأديبية خارج حدود الوادى قد بدأت فى وقت مبكر من إتمام الوحدة. وهناك معلومات إضافية، ولو أنها قليلة، يمكننا أن نحصل عليها من النصوص المسجلة على البطاقات الخشبية والعاجية التى عثر عليها فى مقابر هذه الفترة .

فى مجموعة المتحف البريطانى النموذج رقم ٥٥٨٦: بطاقة عاجية من أبيدوس تبين الملك جين خامس ملوك الأسرة الأولى وهو يقرع رأس عدو ملتح، والعدو راكع أمامه، والنص المرافق للمشهد يقول : «المرة الأولى التى يسحق فيها الشرق». ويعتقد أن المشهد من حملة حربية جردت إلى سيناء.

والنموذج رقم ٣٢٦٥٠ : بطاقة من مجموعة بطاقات عليها شعائر ذات طبيعة دينية.

وهذه الآثار مهما كانت ضآلة شأنها، فإنها تدل على مدى التقدم الحضارى الذى تحقق فى هذه المرحلة. وقد اكتشفت جبانتان على جانب كبير من الأهمية تعودان إلى هذه الفترة، إحداهما فى ابيدوس والأخرى فى سقارة. وقد ثار جدل حول أى منهما يحتوى على المقابر الملكية، إلا أن معظم الأدلة المتوفرة تجعل فى حكم المؤكد أن جبانة أبيدوس هى التى تحتوى على المقابر الملكية، بينما جبانة سقارة تحتوى على مقابر كبار الموظفين.

وقد احتوت الجبانتان على كثير من الأدوات الصغيرة التى تظهر تقدما كبيرا فى المهارات التقنية والفنية فى أوائل الفترة التاريخية فلأول مرة فى مصر تدخل الحجارة ضمن العناصر المعمارية للمقابر، وتستخدم أسقف خشبية ذات أبعاد تدل على أن الخشب الذى استخدم فى عملها لابد أن يكون قد استورد- ربما من الغابات الساحلية بغرب آسيا. كذلك وجدت أدوات صنعت من خامات غير محلية كاللازورد والأبنوس ، مما يؤيد الدلائل على وجود روابط تجارية بين مصر من جهة وآسيا وأفريقيا الاستوائية من جهة أخرى فى ذلك الوقت المبكر.

ومما يؤسف له أن الدلائل المادية لا تشير إلى حقيقة الأوضاع السياسية فى البلاد. والأرجح أن توحيد القطرين كان حلا فرضه الغزاة المنتصرون من الجنوب. لذلك فلا غرابة فى حدوث محاولات لضم عرى الاتحاد كلما ضعفت قبضة الحكومة المركزية، وهو أمر ظل موجودا باستمرار فى مصر القديمة، وساعد عليه اتساع أرجاء المملكة التى يبلغ طولها سبعمائة ميل لا يربطها سوى نهر النيل كوسيلة رئيسية للمواصلات. ومن الواضح أنه ظهرت محاولات للتحلل من الاتحاد فى أواخر الأسرة الأولى.

وفى ظل الاضطراب الذى حدث نتيجة محاولة حل الاتحاد ظهرت الأسرة الثانية التى كان أول ملوكها أما الملك زع نب أو حوتب سيخموى الذى معناه «القوتان متصالحتان». .

وعموما كان تكريس الوحدة والمحافظة عليها فى هذه الفترة هو الهدف السياسى الأول. وتتضح لنا أهمية هذا الموضوع بالنسبة لملوك الأسرة الأولى من نص مسجل على حجر بالرموز كان يتكرر مع بداية كل حكم، ويقول هذا النص : «اتحاد مصر العليا والسفلى، الاحاطة بالسور». والسور المشار إليه هو سور مدينة منف الأبيض الشهير. والعبارة فى مجملها تشير إلى الاحتفال بعيد التتويج.

من معروضات المتحف البريطانى :

١- النموذج رقم ٣٧٩٩٦ الموجود برواق التماثيل المصرية هو تمثال صغير من العاج لأحد الملوك. والتمثال من مكتشفات بترى فى ابيدوس، وهو لأحد ملوك الأسرة الأولى أو الثانية الا أنه خال من أى نقش يحدد هويته.

٢- النموذج رقم ٣٥٥٩٧ وهو أضخم أثر بالمتحف البريطانى لهذه الفترة، وهو من مخلفات الأسرة الثانية، والنموذج لنصب تذكارى من الحجر الجرانيتى منقوش عليه إسم برايب سن سادس ملوك الأسرة الثانية، والإسم مسجل داخل اطار مستطيل يعرف بالسرخ، والجزء الأسفل منه يمثل واجهة أحد القصور، ويعلو السرخ شكل يمثل حيوان ست بدلا من صقر حورس الذى كان يضعه كل ملوك الأسرة الأولى فى هذا الموضع.

ويبدو أن الملك برايب سن قام بإجراء تغييرات سياسية استتبعت نقل الولاء من الإله حورس- الإله التقليدى لأسلافه ولملك مصر الموحدة- إلى منافسه الإله ست. فلما ارتقى الملك خع سخم ومعناه «القوة قد ظهرت» أعاد

وضع صقر حورس فوق إسمه، لكن الذى يبدو هو أنه لم يفلح فى ذلك تماما فتوصل إلى أمر وسط يعمل صيغة توفيقية تقضى على النزاع العقائدى. فنرى أنه غير إسمه فأصبح خع سخموى ومعناه « الوقتان قد ظهرتا » ، وسجل هذا الإسم تحت صقر حورس وحيوان ست أيضا. كذلك اتخذ لقبا وأضافه إلى إسمه وهو «الإلاهان راضيان عنه»، وفى ذلك إشارة واضحة إلى الإلهين المتنافسين. وللأسف، فإن السبب الحقيقى لهذه الحركات الداخلية مازال غامضا. ولكن الذى لا شك فيه أن مثل هذه الاضطرابات هى التى أدت إلى التغيرات التى على أساسها قامت الأسرة الثالثة.

الدولة القديمة (٢٦٨٦- ٢١٨١ ق.م تقريبا)

لقد تحقق فى الفترة المبكرة من الحقبة الأسرية، رغم ندرة آثارها المادية، الكثير من الإنجازات الإنشائية التى أرست دعائم الحضارة المصرية على أسس راسخة. وقرب أواخر عهد الأسرة الثانية بدأت الأساليب الفنية فى التبلور، وتطورت الكتابة الهيروغليفية بشكل ملحوظ واكتسبت المرونة اللازمة لتصبح من أهم وسائل الاعلام. وفى نفس الوقت تطورت وارتقت المهارات التقنية الصناعية والمهنية، وبذلك صار الجو مهيأ للإنطلاق نحو آفاق جديدة من الأنشطة الحضارية الراقية المعقدة، تختلف كثيرا عن الحضارات البسيطة الفجة التى تميزت بها العصور المبكرة.

وكان من حظ الملك زوسر أن يكون عهده أول علامات هذا التحول، الذى بدأ على يدى وزيره القديم ايمحتب عصر جديد على مصر. وايمحتب هو المهندس الملكى الذى ارتفع ذكره فى العصور التالية لدرجة أن اليونانيين القدماء ألحقوه بالآلهة وجعلوه يضاهى أسكلبيوس إله الطب الإغريقى. وأهم آثار زوسر التى شيدها له ايمحتب هو هرم سقارة المدرج، أبرز سمات عصره، ويتميز هذا

الهرم بسوره العظيم الذى يضم عددا من المبانى الأخرى المرتبطة بالاحتفالات الطقسية التى كان الملك يقوم بها.

والهرم كله مبنى بالحجر الجيرى الذى كسى بالحجر الجيرى الناعم الأبيض المقطع من محاجر طرة. وقد سبق أن استخدمت الحجارة فى بناء بعض المعالم المعمارية للمقابر. ولكن هرم سقارة يتميز على كل ما سبقه فى أنه بنى بكامله بالحجارة. كذلك ظهرت لأول مرة فى هذا الهرم المقدرة والمهارة فى استخدام الخامات فى إقامة هذا الصرح.

والفكرة الهندسية الكامنة وراء إنشاء هذا الأثر يمكن فهمها بسهولة. فقد كان الهدف من بناء هذا الصرح هو إقامة أثر خالد يدل على المدى الذى وصلت إليه حضارة مصر فى عهد الملك زوسر. وقد آمن القدماء بذلك، والدليل على ذلك تلك النقوش التى خلفها بعض الزائرين على بعض مبانيه.

كذلك لقى هذا الأثر إهتماما كبيرا فى العصر الصاوى. وفوق ذلك كله نجد أن قائمة تورين للملوك، وهى قائمة سجلت فى زمن الأسرة التاسعة عشرة، تولى فترة حكم زوسر إهتماما كبيرا لدرجة أنها سجلت هذه الفترة بالمداد الأحمر على غير العادة. ولسنا نعرف على وجه اليقين إن كان زوسر هو أول ملوك الأسرة الثالثة أو ثانيها.

وهناك من يقول بأن مؤسس الأسرة الثالثة هو الملك سانخت، أحد الملوك المجهولين الذين لم يخلفوا آثارا كثيرة. وعلى العموم فقد ثبت أن هذين الملكين أرسلا حملات استكشافية إلى سيناء للبحث عن الفيروز وربما النحاس أيضا، كان من عملهما فى نفس الوقت تأديب البدو هناك، وكلا الملكين له آثار تشهد على ذلك. كذلك فمن المحتمل أن تكون حدود مصر الجنوبية عند الشلال الأول قد تم تثبيتها فى عهد الملك زوسر.

معروض فى قناعة التماثيل المصرية بالمتحف البريطانى- نموذج رقم ١٣٢٤.

مسجلة عليه ألقابه التى بلغت ٤٧لقبا، تغطى كل الأنشطة الإدارية والكهنوتية والمدنية والقضائية والعسكرية والمالية، ثم الألقاب الشخصية. ومن الواضح أنه من الناحية النظرية كان المفروض أن يقوم بكل هذه الأنشطة الإدارية لوالده الفرعون، ولكن الذى لاشك فيه هو أن معظم هذه الألقاب كانت شرفية فقط. ولا يهمنا هنا إن كان الأمير قد مارس هذه الأنشطة بنفسه أم لم يمارسها، ولكن الذى يهمنا هو أن كثرة الوظائف الإدارية وتعدد مجالاتها تعتبر دليلا كافيا على أن الإدارة فى عهد هذه الأسرة قد بلغت مستوى عاليا من التنظيم، بحيث تحددت اختصاصات الوظائف بشكل ملحوظ.

ويتجلى أثر هذا التنظيم الدقيق بكل وضوح فى بناء أهرام هذه الأسرة. وقد افترض، فى وقت ما أن هذه الإنشاءات الهرمية الضخمة كان يقوم بها العبيد. ولكن هذا الافتراض قد تراجع الآن، وتغلب عليه الرأى الذى يقول بأن الجانب الأكبر من أعمال البناء كان يجرى أثناء موسم الفيضان حيث لا يمكن للعمال العمل فى الحقول، وبذلك يمكن توفير العمالة اللازمة دون أن تتأثر الزراعةبذلك.

كذلك فإن للفيضان ميزة أخرى بالنسبة لبناء الهرم، فهو كان يسهل نقل الحجارة المقطوعة من التلال الواقعة على شرق النيل إلى الهضبة الصحراوية التى شيد الهرم عليها. وقد قدرت الإحصاءات عدد القطع الحجرية الكبيرة (وهى جلاميد من الحجر الجيرى) التى استخمت فى بناء الهرم الأكبر بمليونين وثلاثمائة ألف قطعة متوسط وزن كل منها طنان ونصف. ولا يخفى المدى الذى وصلت إليه كفاءة التنظيم الإدارى لاكمال مثل هذا الصرح المنيف.

وبعد فترة انتقال قصيرة تولى الحكم فيها رع ددف تولى بعده الحكم الملك خفرع، الذى بنى هرمه قرب هرم أبيه خوفو بالجيزة أيضا. وهو هرم أصغر منه ومبنى على ربوة مرتفعة تجعله يبدو أكبر حجما من حقيقته. وقد تخلدت ملامح هذا الفرعون فى رأس تمثال أبى الهول الضخم الرابض بالقرب من معبد الوادى الخاص بهرمه. والتمثال يمثل أسدا ذا رأس بشرية ضخمة - هى رأس خفرع نفسه- نحت من كتلة حجرية واحدة، وربما كان المقصود بهذا الأثر أن يكون رمزا يدل على أن الملك - ابن الإله- رابض لحماية الجبانة الملكية.

ولا يشك أحد فى روعة وفخامة ما شيده- سنفرو وخوفو وخفرع. ولكن من المؤكد أنها كانت عبئا فادحا على اقتصاد مصر. والدليل على ذلك أنه لم يحاول أى فرعون بعدهم أن يبنى مثلهم. ويدل على ذلك أن هرم منكاورع الذى يكمل ثلاثى أهرام[1] الجيزة الضخمة جاء متواضعا جدا بالنسبة لهرمى سلفيه. وحتى شبسسكاف خليفة منكاورع المباشر فقد قنع بمقبرة مصطبية كبيرة يدفن فيها.

وعلى الرغم من اشتهار الأسرة الرابعة بآثارها الضخمة، إلا أنه كانت لهم إنجازات فى مجالات أخرى وإن كان ما وصلنا منها قليلا. فقد دلت النقوش بمنطقتى سيناء ومحاجر الديوريت بالنوبة على إرسال حملات تحت الحراسة العسكرية إلى هناك للحصول على الخامات المختلفة، ويسجل حجر بالرمو أن الملك سنفرو أرسل حملتين ناديبيتين كبيرتين إلى النوبة والى الليبيين. كذلك دلت أعمال التنقيب الأخيرة على وجود مصنع لصهر النحاس كان تحت التشغيل أثناء حكم الأسرة الرابعة، يقع فى أقصى شمال الشلال الأول. كذلك سجل أن بعض عابرات البحار قد أحضرت أخشابا فى عهد الملك سنفرو، وهذا دليل على

(١) كثير من المؤرخين والكتاب يكتبون (أهرامات) وهى خطأ لغوى لأن المفرد هرم والجمع أهرام أم أهرامات فتكون جميع أهرامة ، فنرجو أن يتنبه المؤرخون والكتاب والمترجمون لهذا الخطأ المتكرر.

التبادل التجارى مع غرب آسيا عن طريق ميناء جبيل (بيلبوس) وخلال الأسرة الخامسة كان إرسال الحملات إلى النوبة وسيناء وليبيا يتم تسجيلها بشكل واضح. وورد مرة واحدة ذكر لبعثة تجارية أثناء حكم اسيسى، ثامن ملوك الأسرة الخامسة، إلى بلاد بونت (الصومال). ومثل هذه المعلومات وصلتنا عن طريق النقوش الخاصة بالمذكرات الشخصية التى سجلها كبار النبلاء الذى قادوا هذه الحملات. ومن أهم هذه النقوش نقش بتاج شبسس.

معروض فى قاعة التماثيل المصرية بالمتحف البريطانى: النموذج رقم ٦٨٢.

الذى ولد فى عهد منكاورع وتزوج إحدى بنات شبسسكاف. وقد ثبت أنه كان حيا ويمارس وظائفه حتى عهد الملك نى أوسروع سادس ملوك الأسرة الخامسة على أقل تقدير. ويدل إطلاق الحرية للنبلاء فى حفر نقوش تسجل أمجادهم الشخصية، والسماح لهم بمصاهرة العائلة الملكية، على تراخى قبضة الفرعون عن الإمساك بالسلطة المطلقة التى تميز بها فراعنة الأسرة الرابعة فى أوائل عهدها.

وأثناء الأسرة الخامسة أدخل تعديل على مفهوم الملكية. يرجع جانب منه إلى إزدياد الولاء لعبادة رع- إله الشمس وإله هليوبوليس، وجانب آخر يعود إلى التأثر بحكايات أوزيريس الأسطورية.

وقد شاعت قصة فى الدولة الوسطى مؤداها أن أول ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة – وهم أوسر كاف وساحورع ونفر اير كارع كانوا أبناء زوجة كاهن رع، وأن أباهم هو الإله رع نفسه.

من أجل ذلك حمل كل ملوك الأسرة الخامسة بدون استثناء لقب «ابن رع»، وهو لقب لم يستخدم إلا نادرا فى الأسرة الرابعة. وتمجيدا للإله رع

وللإشادة بصلته بهم قام ستة من ملوك الأسرة الخامسة - إن لم يكن أكثر- بإقامة معابد سامقة لإله الشمس فى أبى غراب - على بعد عدة أميال جنوب الجيزة.

وقد اهتم ملوك الأسرة الخامسة ببناء أهرام لهم فى أبى صير وسقارة، لكنها كانت صغيرة جدا بالنسبة لأهرام الأسرة الرابعة، ورغم صغر حجمها إلا أنهم اهتموا بزخرفتها بنقوش رائعة دقيقة ملونة وأدخلوا فى معابد الأهرام وملحقاتها الكثير من التفصيلات الهندسية استخدمت فيها الحجارة الناعمة - الصلبة والجيرية.

من معروضات المتحف البريطانى - فى قاعة التماثيل المصرية : النموذج رقم ١٧٨٥ : عمود جرانيتى من معبد هرم أوناس - آخر ملوك الأسرة الخامسة. والعمود تخيل الشكل تاجه على هيئة سعف النخل المتعاقد.

وقد انشئت فى عهد الأسرة الخامسة أجهزة خدمية لرعاية معابد ملوك الأسرة الراحلين، وأوقفت عليها أراض معفاة من الإيجار والضريبة. وأوكل إلى هذه الأجهزة أيضا صيانة معابد إله الشمس.

من مقتنيات المتحف البريطانى: النموذج رقم ١٠٧٣٥: بعض الوثائق الخاصة بمعبد نفر اير كارع. جمع الوثائق جد كارع اسيسى ثامن ملوك الأسرة الخامسة. وهى تكون جزءا من مجموعة وثائق تعد من أقدم البرديات المنقوشة التى اكتشفت فى مصر.

وقد احتوى هرم أوناس على ابتكار له أهميته القصوى : فقد غطيت حوائط ردهة الهرم المستوية مع غرفة الدفن بنصوص دينية تتعلق بمصير الملك

وماله بعد الموت. هذه النصوص تسمى فى الوقت الحاضر بنصوص الأهرام. ومثل هذه النصوص وجدت فى أهرام الأسرة السادسة.

ويلاحظ على مقابر نبلاء هذه الأسرة أنها أصبحت متطاولة فى البنيان وأقل ارتباطا بالهرم الملكى، على عكس ما كان عليه الحال فى الأسرة الرابعة عندما كانت متواضعة البنيان متراصة حول هرم الملك. هذا التطور الذى يدل على تضاؤل ارتباط النبلاء بملوكهم زاد بشكل ملحوظ فى الأسرة السادسة، ووضح حرص النبلاء على أن يدفنوا فى أقاليمهم- حيث تركزت سلطاتهم- بعيدا عن مقر الملك والجبانة الملكية.

وانتشرت لا مركزية الإدارة فى الأسرة السادسة واستفحل أمرها مما زاد فى استقلال حكام الأقاليم وزيادة نفوذهم بالتالى. ومن المنطقى أن يؤدى تراخى السلطة المركزية بهذا الشكل إلي الارتباك والتفكك، ثم ظهور فترة من الحكم الفوضوى، أطلق عليها اسم (عصر الانتقال الأول - أو عصر الاضمحلال الأول).

ولكن هذا لا ينفى أن ملوك الأسرة السادسة فى معظم الفترات كانوا على درجة كافية من القوة مكنتهم من حفظ وحدة البلاد، وتحقيق بعض المشاريع الطموحة داخل البلاد وخارجها.

والميزة التى انفردت بها هذه الأسرة عن كل ما سبقها، هى النقوش التى وجدت فى مقابر كبار موظفيها. فقد احتوت هذه النقوش على معلومات كثيرة عن أنشطة ملوكها. وقد أوضحت لنا هذه النقوش جانبا من السياسة الخارجية التوسعية فى عهدها.

ففى عهد ملوكها ببيى الأول ومرن رع وببيى الثانى أرسلت حملات عسكرية توغلت فى النوبة وليبيا. كما أرسلت بعض الحملات إلى غرب آسيا

وسيناء وبلاد بونت. والأوصاف التى أعطيت لبعض هذه الحملات توحى بأن أهدافها كانت تزيد كثيرا على مجرد الغرض التأديبى الذي كان الهدف الرئيسى لمثلها فى الأسر السابقة. ويبدو أن أحد أهداف مثل هذه الحملات كان جلب الأسرى وتسخيرهم للخدمة بالجيش المصرى.

وفى عهد الملك بيبى الثانى - الذى يقال أنه حكم لمدة أربع وتسعين سنة - تقلصت الإدارة المركزية تماما. وأسباب ذلك لا تخفى على أحد. فاستفحال النزعة اللامركزية وزيادة نفوذ حكام الأقاليم، كما سبق أن أشرنا، عهدت لهذه النتيجة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملك بيبى الثانى عندما امتدت أيامه أصبح عاجزا عن مواصلة جهوده التوسعية التى ميزت أيام حكمه الأول.

ومن تداعيات الأمور عندما تتراخى السلطة المركزية، وتتفكك الأوضاع السياسية أن ينتهى الوضع بسقوط الدولة القديمة، وهو الأمر الذى حدث بعد موت الملك بيبى الثانى بقليل، وأدى إلى دخول البلاد فى عصر الاضمحلال الأول.

العصر الوسيط الأول

عصر الاضمحلال الأول (٢١٨١ - ٢٠٥٠ ق.م. تقريبا)

بعد وفاة الملك بيبى الثانى حكم مصر من ملوك الأسرة السادسة ثلاثة من ملوك الظل، حسب قائمة الملوك. وبعدها دخلت البلاد فى عصر من الفوضى السياسية أطلق عليه اسم عصر الانتقال الأول أو عصر الاضمحلال الأول، لأن السلطة المركزية فيه اضمحلت تماما وأوشكت أن تتلاشى.

ودخلت البلاد فى حالة من الفوضى تفاقم أمرها بسبب أعمال الشغب التى سببها البدو الذين تمكنوا من الوصول إلى حدود الدلتا حينئذ.

وقد امتد عصر الاضمحلال الأول لفترة تقرب من مائة وثلاثين سنة لا نعرف عنها إلا النزر اليسير. والأسرة السابعة، حسب قائمة مانيتون لا تزيد عن كونها اتحادا بين مجموعة من النبلاء المتمركزين فى منف تحالفوا معا للاستيلاء على السلطة المركزية المتدهورة.

أما الأسرة الثامنة، فالمادة التاريخية المتوفرة عنها أكثر قليلا مما نعرف عن الأسرة السابعة. وامتدت سيطرة ملوكها من منف حتى قفط جنوبا، حيث وجدت فيها نقوش تحمل أسماء بعض ملوك هذه الأسرة. وفيما عدا ذلك، وقعت مصر تحت سيطرة حكام الأقاليم، الذين أصبحوا، تبعا لحالة البلاد السياسية، أمراء لمناطقهم كأمر واقع.

وتدل نقوش مقابر هؤلاء الحكام على مدى اضطرارهم للاعتماد على أنفسهم فى إدارة مناطق نفوذهم كوحدات مستقلة، لدرجة أنهم كانوا يدخلون فى حروب صغيرة مع جيرانهم للمحافظة على كيانهم. والنتيجة الحتمية لمثل هذه المنافسة بين الأقاليم هى ظهور بعض الأقاليم القوية، مما يدفع الأقاليم الضعيفة المجاورة لها إلى التحالف معها ثم الانضواء تحت لوائها.

وأول الأقاليم التى تصدرت للزعامة، على الصورة التى ذكرناها كان الإقليم العشرون فى الوجه القبلى، وعاصمته هر كليوبوليس. وكان بزوغ نجم هر كليوبوليس حوالى عام ٢١٦٠ قبل الميلاد متزامنا مع أفول نجم الأسرة الثامنة، فادعى حاكمها اختوى لنفسه – الذى من حقه أن يعتبر مؤسس الأسرة التاسعة – عرش مصر وتسمى بالإسم الملكى مرى ايب رع.

ويقول مانيتون أن مرى ايب رع اتبع سياسة نشطة وعدوانية للسيطرة على مصر الوسطى، ولكن لا يبدو أنه أفلح فى إخضاع الأقاليم الجنوبية الداخلية ولا أقاليم الدلتا.

ومجموع ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة تسعة عشر ملكا، معظمهم يسمى أختوى. وهم على الرغم من فشلهم فى بسط نفوذهم على كل البلاد، فقد تمكنوا من توطيد حكم قوى مستقر فى شمال البلاد، وأمكنهم تقليص نفوذ الآسيويين فى الدلتا بشكل كبير. كذلك تمكنوا من إعادة خطوط الملاحة التجارية مع غرب آسيا، بدليل استخدامهم لخشب الأرز اللبنانى فى صنع التوابيت الضخمة المنقوشة التى تعتبر أهم ما تميزت به حضارة هر كليوبوليس.

واستعادت منف فى عهدهم مكانتها كعاصمة لشمال مصر، وعاد الملوك إلى استخدام الجبانة الملكية بسقارة كى يُدفنوا فيها. وقد اكتسب أحد ملوك هذا العهد ممن تسموا باسم أختوى، وهو الملقب نب كاورع، شهرة عريضة باعتباره صاحب قصة الفلاح الفصيح الذى رفعت إليه عدة شكاوى بليغة في قصة من أشهر القصص المصرى القديم.

فى هذه الأثناء سيطر الصراع على السلطة على مجريات الأمور فى مصر العليا، بين الاتحادات الإقليمية التى كانت تتغير باستمرار. وكانت السيادة بصفة عامة لاتحادى ادفو (الإقليم الثانى) وطيبة (الإقليم الرابع). وفى ذلك الوقت كانت طيبة قد وطدت سيادتها حديثا كعاصمة للأقاليم على حساب العاصمة القديمة هرمونتيس.

وكان يحكمها عائلة ملكية غلب على أسمائهم اسم انيوتف ، اتبعوا سياسة توسعية فعالة فى الجنوب، فلما نجحت سياستهم فى إحكام قبضتهم على الأقاليم الجنوبية، أصبحت المواجهة مع اتحاد هر كليوبوليس الشمالى أمرا حتميا.

ووصل الصراع إلى نقطة حاسمة، عندما قام أحد حكام طيبة تحت اسم أنيوتف كالعادة بتحدى سلطة هر كليوبوليس بإدعاء أنه، ملك مصر العليا

والسفلى». ورغم هذا الإدعاء فإن هذا الملك لم تتعد حدود مملكته الأقاليم الجنوبية المكونة للاتحاد الإقليمى الجنوبى. ومع ذلك فقد اعتبره المصريون، بعد ذلك ، صانع الوحدة بين القطرين، وأول ملوك الأسرة الحادية عشرة.

وبعد أنيوتف هذا الذى عرف باسم انيوتف سهر تاوى تولى الحكم الملك أنيوتف واح عنخ الذى أمكنه توسيع رقعة مملكته حتى شمال أفروديتوبوليس (أطفيح حاليا). وهناك نقش على لوحة أقامها تتى، أحد كبار موظفى واح عنخ وخليفته انيوتف نخت نب تب نفر، يذكر أن حدود المملكة فى زمنه كانت تقع بين طيبة ومدينة طينة.

اللوحة محفوظة بالمتحف البريطانى : النموذج رقم ٦٤١.

لكن الصراع لم يحسم بصورة نهائية إلا فى عهد الملك التالى، وهو الملك نب حيت رع منتوحوتب الثانى ، الذى نجح فى القضاء على المملكة الشمالية. وبذلك عادت الوحدة التامة للبلاد مرة أخرى تحت سلطة مركزية مطلقة. وعلى أثر ذلك اتخذ منتوحوتب لنفسه الإسم الحورس سماتاوى، ومعناه «موحد القطرين». ويعتبر تاريخ إتمام الوحدة (حوالى سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد) هو بداية العصر المعروف باسم الدولة الوسطى.

الدولة الوسطى

(٢٠٥٠ - ١٧٨٦ ق.م. تقريبا)

لا نعرف بالضبط الخطوات التى اتخذها نب حبت رع منتوحوتب لاستكمال وحدة البلاد، إلا أن النقوش المعاصرة تدل على أن سياسته كان لها هدفان هما تدعيم وحدة البلاد وتوطين السكان. وما أن تمت الوحدة تحت إدارة مركزية حازمة، حتى أخذ يرسل الحملات شمالا ضد الليبيين والبدو، وجنوبا ضد النوبيين، كما قام بإعادة تشغيل المناجم والمحاجر وتجديد الطرق التجارية. وبعد فترة حكمه الطويلة الناجحة، التى استمرت ما يقرب من خمسين عاما، يحق لمنتوحوتب الثانى أن نعترف له بفضل إعادة بناء الدولة المصرية على أسس وطيدة، بحيث أمكنها أن تحقق إنجازات باهرة سياسية ونهضة عظيمة فى الفنون ظهر أثرها طوال عصر الدولة الوسطى.

وقد شيدت لمنتوحوتب مقبرة تميز تصميمها بالأصالة والابتكار فى خليج يقع وسط الصخور بالدير البحرى على البر الغربى بطيبة. وألحق بالمقبرة معبد جنازى على جدرانه نقوش غاية فى الإتقان، وخالية من عيوب اختلال النسب وضعف التنفيذ الذى كان متفشيا فى أعمال عصر الانتقال الأول. ومنذ ذلك الوقت بدأ الفن المصرى يسترجع الكثير من سماته ومنجزاته التى كان قد حققها فى أواخر عصر الدولة القديمة بمنف.

فى المتحف البريطانى توجد بعض الكسرات من النقوش البارزة لذلك المعبد. فى قاعة التماثيل المصرية.

ومن الأنشطة التى تدلنا على صحوة مصر بعد طول سبات، إعادة إرسال البعثات إلى بلاد بونت. وكانت أول بعثة من هذا النوع فى عهد الملك سمنخ كارع منتوحتب الثالث، ابن منتوحتب الثانى وخليفته. وقد سجلت أخبار هذه

البعثة فى نقش محفور بوادى الحمامات حيث مرت البعثة فى طريقها إلي بلاد بونت، فقد كان الطريق من ساحل البحر الأحمر إلى قفط يمر خلال هذا الوادى.

وفى نفس المكان (وادى الحمامات) يوجد نقش آخر يساعد على إيضاح الكيفية التى انتهت بها إزاحة الأسرة الحاكمة، وحلول الأسرة الثانية عشرة محلها. وهذا النقش فيه تسجيل لاحدى البعثات إلى وادى الحمامات فى عهد الملك نب تاوى رع منتحوحتب الرابع، آخر ملوك الأسرة، وكان رئيس البعثة يسمى أمنمحات. ويبدو أن البعثة صادفتها أحداث مؤسفة اعتبرت نذير شؤم. والمهم أنه فى سنة ١٩٩١ ق.م تقريبا استولى على حكم مصر ملك اسمه أمنمحات، أسس أسرة جديدة وعرف باسم أمنمحات الأول. وأغلب الظن أن هذا الملك هو نفسه أمنمحات صاحب النقش المذكور بوادى الحمامات، والمعتقد أنه استولى على الحكم اما باسقاط حكومة منتوحتب، أو عقب وفاته مباشرة.

والعثور على آثار للأسرة الثانية عشرة فى سوريا وفلسطين يكشف عن وجود روابط وثيقة بين مصر وهذين البلدين لا تقتصر على مجرد التبادل التجارى عن طريق ميناء جبيل (بيبلوس) المعروف.

لدى المتحف البريطانى من هذه الآثار أثران مهمان جلبا من بيروت :

١- النموذج ٥٨٨٩٢: تمثال أبو الهول من الديوريت للملك امنمحات الرابع (١٧٩٨- ١٧٩٠ق.م)، ويبدو أن وجهه قد أعيد تشكيله بعد إقامته بمدة.

٢-النموذج ٥٩١٩٤ : لوحة من الذهب للملك امنمحات الرابع أيضا والأثران معروضان فى قاعة التماثيل المصرية بالمتحف.

وخلال حكم الأسرة الثانية عشرة كانت النوبة تمثل مشكلة كبيرة لملوك مصر. فقد استدعت الضرورة بالإضافة إلى تأمين حدود مصر الجنوبية، تأمين

منطقة المناجم المنتجة بالنوبة وكذلك تامين خطوط التجارة المتجهة جنوبا إلى قلب أفريقيا . ولذلك ضمت شمال النوبة إلى مصر فى عهد امنمحات الأول. وفى عهد خليفته سنوسرت الأول أقيمت قلعة على الحد الشمالى للشلال الثانى فى بوهن.

وفى فترة متأخرة من حكم هذه الأسرة - ربما فى عهد سنوسرت الثالث - أقيمت سلسلة من القلاع فى بعض المناطق عند الشلالين الأول والثانى. وأدى المزاج الدموى، والنزعة الحربية للقبائل المحلية هناك - خصوصا قبائل ما عرف باسم المجموعة جـ وشعوب كرما - إلى ضرورة إتباع سياسة صارمة لمنع الثورة ضد الاحتلال المصرى، ولصد محاولات التسلل من مناطق الحدود الجنوبية التى أسسها سنوسرت الثالث عند المدخل الجنوبى للشلال الثانى المحمية بقلعتى سمنة وقمة. وبهذا تحققت الرقابة. ونظمت تحركات الأهالى فى مناطق النفوذ المصرية، وأقيمت نقاط الحراسة لتنظيم التجارة والهجرة. ورغم ذلك فان تغلل مصر جنوبا لا يبدو أنه قد نجح تماما فى هذه الفترة، رغم وجود دلائل تدل عليه جنوب الشلال الأول، سجلته نقوش متفرقة.

ولا شك أنه فى منتصف عهد الأسرة الثانية عشرة نشطت حركة استيطان دائمة كبيرة ومستقرة فى كرما عند الحد الجنوبى للشلال الثالث، سميت الحضارة التى قامت هناك باسمها. ويظهر أثر تهديدات كوش (الاسم المصرى للمملكة النوبية) فى قيام مصر بتجريد عدد من الحملات، من قلعة سمنة، لرصد تحركات النوبيين فى هذه المنطقة (وقد حفظت نسخة بها أخبار هذه الحملات فى طيبة). وهذه الوثائق - التى كتبت فى وقت مبكر من حكم أمنمحات الثالث - توضح بصورة تدعو إلى الإعجاب مدى كفاءة التنظيم الإدارى الذى حققه المصريون فى النوبة فى ذلك الوقت.

عصر الانتقال الثانى

(عصر الاضمحلال الثانى ١٧٨٦- ١٥٦٧ق.م تقريبا)

يطلق على الفترة التى تشغلها الأسر من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة اسم عصر الانتقال الثانى، وتتكون من ثلاث أسرات مصرية وأسرتين أجنبيتين تعزوان إلى حكم ملوك الهكسوس الآسيويين. وهذه الفترة أحداثها التاريخية متداخلة ومتشابكة ويسودها الاضطراب، سواء بين الأسر أو داخلها.

ويمكن تلخيص الأحداث باختصار كما يلى : استمرت أحوال البلاد السياسية مستقرة تحت حكم حكومة مركزية مسيطرة على البلاد بشكل معقول حتى نهاية الأسرة الثالثة عشرة. وقرب نهاية الأسرة أخذت قبضة الحكومة تتراخى، وأخذ التفكك يستشرى لدرجة أن المستوطنين الآسيويين بالدلتا تمكنوا فى النهاية من تأسيس مملكة مستقلة فى الشمال. وعرف هؤلاء باسم الهكسوس وهو اسم مستمد من الكلمة المصرية القديمة «حقا وخاسوت» ومعناها «أمراء البلاد الأجنبية».

والمرجح أنهم لم يكونوا من الغزاة، بل من المستوطنين الآسيويين الذين قويت شوكتهم فاستغلوا فرصة الفوضى التى عمت أرجاء البلاد، وفرضوا سلطانهم على الدلتا ثم مدوه بعد ذلك نحو الجنوب.

ويذكر مانيتون أسماء اثنين وستين ملكا باعتبارهم فراعنة الأسرة الثالثة عشرة، سجلت أسماء معظمهم بالفعل على آثارهم ومقتنياتهم الصغيرة. واستمرت سيطرة الأسرة الثالثة عشرة على شمال البلاد وجنوبها بفضل مجموعة من الوزراء وكبار الموظفين ذوى الكفاءة، إذ كانت مدد الملوك كما لاحظنا قصيرة جدا ولا تمكنهم من عمل الكثير بأنفسهم.

وأثناء الأسرة لم تتغير عاصمة البلاد، كما استمرت العلاقات بين مصر والبلاد الأخرى مثل جبيل (بيبلوس) وغرب آسيا، وكذلك ظلت السيطرة على النوبة. وأقيمت التماثيل والمبانى فى هذه الفترة، كما ازدهرت الفنون بشكل كبير ولم تتدهور تدهورا كميا ولا كيفيا كما حدث في عصر الانتقال الأول. وكل ذلك يدل على أن عهد الأسرة الثالثة عشرة كان عهد استقرار على الأقل فى الجزء الأول منه .

من معروضات المتحف البريطانى :

النموذج ٦٥٤٢٥ : تمثال صغير من الشست للملك مرى عنخ رع منتوحتب معروض بالقاعة المصرية الخامسة، يوضح مدى المحافظة على المستوى الفنى.

ولكن الملفت للنظر فى هذه الأسرة هو عدم استقرار ملوكها لأسباب مازالت مجهولة، وهو السبب الذى أدى فى النهاية إلي تزعزع مركز الحكومة حتى خرجت الأمور عن سيطرتها فى أواخر عهد الأسرة.

وكل ما نعلمه عن الأسرة الرابعة عشرة هو أن فراعنتها وصل عددهم إلى ستة وسبعين ملكا، وأنهم لم يسيطروا إلا على جزء من غرب الدلتا حكموه من مدينة سخا عاصمة الإقليم الشمالى السادس. وهذا الجزء من شمال مصر كان قد أخذ فى التفكك بالفعل فى أواخر الأسرة الثانية عشرة. مما يبعث على الاعتقاد بأن فترتى حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كانتا متعاصرتين، على الأقل فى هذا الإقليم.

ولا توجد معلومات دقيقة عن كيفية نمو وتصاعد نفوذ الهكسوس فى شرق الدلتا. والمعتقد أن المستوطنين الآسيويين كان لهم بالفعل بعض النفوذ المحلى، ومكنهم ذلك فى ظل الفوضى السائدة من تكوين حكومة في مدينة

أفاريس حوالى سنة ١٧٢٠ ق.م. واتخذوا الإله ست إلها لهم. وبذلك أسسوا الأسرة الخامسة عشرة التى توطدت سلطتها حوالى سنة ١٦٧٠ق.م.

وأثناء الأسرة السادسة عشرة ظهر عدد من صغار ملوك الهكسوس تزامن وجودهم مع بعض كبار هؤلاء الملوك. ولكن ملوك الهكسوس الكبار ذوى الشأن وعددهم ستة فقط تخلدت أسماؤهم على الجعارين التى أصدروها.

وكان معظم هؤلاء من ذوى النشاط والقوة، وحققوا الكثير من الإنجازات العظيمة.

وقد امتدت دائرة نفوذهم فشملت كل أنحاء مصر، على الرغم من عدم وجود ما يثبت أنهم حكموا منطقة طيبة حكما مباشرا. وقد وجدت جعارين تحمل أسماء هؤلاء الملوك فى منطقة كرما بالسودان، كما وجدت مثل هذه الجعارين أيضا بفلسطين.

من معروضات المتحف البريطانى :

النموذج ٩٨٧ (معروض بالقاعة المصرية الخامسة) : أسد من حجر الجرانيت، يحمل اسم الملك «خيان» ثالث ملوك الهكسوس، عثر عليه فى بغداد.

ويبدو أن تعبئة الشعور الوطنى ضد حكم الهكسوس، والنظر إليهم باعتبارهم طغاة مستبدين حكموا شعبا رافضا لحكمهم بالقوة والإرهاب، لم يحدث قبل بداية الأسرة الثامنة عشرة (أى بعد زوال ملكهم).

لكن الدلائل تدل على أنهم لم يكونوا كذلك، بل على العكس اعتبر الهكسوس أنفسهم ملوكا محليين وتسموا بأسماء مصرية واتبعوا التقاليد المصرية الحضارية.

من معروضات المتحف البريطانى فى القاعة المصرية الثالثة :

١- النموذج ١٠٠٥٧ عبارة عن جزء من لفافة بردية رياضية ضخمة، كتبت أثناء حكم الملك أوسررع أبو فيس الأول- الذى حكم مصر فترة طويلة تقرب من أربعين عاما- وكانت علاقته بمصر العليا طيبة حتى وقت متأخر من فترة حكمه، ثم أصبح الصراع مع الأسرة الحاكمة بطيبة أمرا حتميا.

٢- النموذج ٥٤٦٧٨ : الجزء الأمامى من تمثال عاجى على هيئة أبى الهول وهو قابض على مصرى من أذنيه. ويظن أن هذا التمثال لأحد ملوك الهكسوس أثناء سيطرتهم على البلاد. ولقد عثر عليه فى مقبرة بجبانة أبيدوس.

وقد عثر بجبانة أبيدوس على قبر أغراب لهم عادات دفن غريبة. وكان هؤلاء القوم - الأغراب - من النوبيين الذين يرجع أنهم وفدوا للعمل كمقاتلين محترفين، وأنهم احتفظوا بعاداتهم المحلية لفترة من الوقت. وتدل حياتهم على وجود اختلافات فى العادات بينهم وبين معاصريهم من المصريين، من ذلك الجر(١) السوداء ذات النقوش المحززة.

نموذج ٦٣٠٣٨ بالمتحف البريطانى :

جرة سوداء ذات نقوش محززة نوبية من المستجدة

وقد تأقلم هؤلاء القوم مع طبيعة الحياة فى مصر فى وقت متأخر وهجروا أساليبهم القديمة فى دفن موتاهم.

وبدأت الحركة التى انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس من طيبة. ففى حوالى سنة ١٦٥٠ق.م. تولى الحكم فيها بعد الأسرة الثالثة عشرة أسرة

(١) الجرار أى آنية فخار

جديدة من الحكام عرفت باسم الأسرة السابعة عشرة، بدأت عهدها باحياء الألقاب الملكية، وبمحاولة المحافظة على التراث الحضارى للدولة الوسطى. وحكام المجموعة الأولى فى الفترة المبكرة لهذه الأسرة كان همهم السيطرة على بعض أقاليم الوجه القبلى. ويبدو أنهم قد قنعوا بذلك واعترفوا بسيادة الهكسوس ولم يحاولوا تطوير أوضاعهم السياسية.

وأما المجموعة الثانية من حكام الأسرة السابعة عشرة بطيبة فتبدأ بالملك نب خبر رع أنيوتف الذين أصروا على المطالبة بعرش مصر كلها، فاتبعوا سياسة تعبوية أدت فى النهاية إلى مواجهة عسكرية مع حكام الهكسوس. وقد وصل الصراع إلى ذروته فى عهد الملك كاموس الذى ما أن نجح فى التوغل داخل النوبة حتى سارع بنقل الحرب حتى أبواب أفاريس نفسها.

وعلى العموم تم النصر النهائى ودحر الهكسوس نهائيا من مصر حوالى سنة ١٥٦٧ ق.م. تقريبا على يدى أحمس خليفة كامس والذى يعد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

من معروضات المتحف البريطانى:فى القاعة المصرية الثانية :

النموذج ٦٦٥٢: تابوت خشبى مطعم برقائق ذهبية، يعتقد أنه يخص الملك نب خبر رع أنيوتف أول ملوك المجموعة الثانية من الأسرة ١٧.

وفى القاعة المصرية الرابعة :

النموذج ٣٦٧٢٧ رأس بلطة منقوش عليها اسم كامس.

الدولة الحديثة

(١٥٦٧ - ١٠٨٥ق.م. تقريبا)

تبلورت شخصية الأسرة الثامنة عشرة، بصفة عامة، من السياسات التى اتبعها ونفذها الملك أحمس أول ملوك هذه الأسرة. وهذه السياسات جاءت نتيجة الأمر الواقع الذى فرضته الظروف بعد احتلال أفاريس وتوحيد القطرين.

فقد كان من الضرورى البدء فورا فى تحصين شمال البلاد، والدلتا شرقها وغربها، وتشكيل حكومة مركزية قوية لحكم مصر الموحدة. وبعد ذلك كان لابد من توطيد السيطرة المصرية على النوبة، وإعادة فتح طرق التجارة إلى أفريقيا وآسيا. وكما حدث فى بداية الدولة الوسطى، واكبت الوحدة الجديدة صحوة كبيرة وحماس شديد فى شتى المجالات خصوصا بعد طرد الهكسوس من البلاد.

ويبدو أن تدعيم الحكم الداخلى قد استغرق من حكم أحمس ثلاث سنوات، ما لبث بعدها أن تعقب الهكسوس ودحرهم فى شاروهن بشمال فلسطين. وقد أصبحت هذه السياسة الطموحة التوسعية هى السياسة التى تبناها خلفاء أحمس الأوائل، فنجد تحتمس الأول يتوغل حتى نهر الفرات، ويهزم دولة ميتانى القوية، ويخلد انتصاره هناك بإقامة نصب تذكارى على البر الغربى لنهر الفرات.

وكان لملوك هذه الأسرة سياسة حربية قوية تجاه النوبة هدفها بعد السيطرة عليها التوجه جنوبا تجاه منابع النيل. وكان الملك أحمس نفسه قد تمكن من استعادة الجزء الواقع جنوبى النوبة حتى الشلال الثانى، لكنه اضطر إلى العودة إليها مرة أخرى لقمع الحركات المعادية التى قامت هناك. ويبدو أن ذلك دفعه إلى إنشاء وظيفة جديدة عليا هى نائب الملك هناك، واضح أن هدفها

إحكام سيطرة مصر على النوبة وهذه الوظيفة ظلت لها أهمية كبيرة طوال عهد الدولة الحديثة.

وقد تمكن أمنحتب الأول ومن بعده تحتمس الأول من إعادة ترميم الحصون التى بنيت فى عهد الدولة الوسطى. وكذلك إهتم ملوك هذه الأسرة الأوائل باتخاذ خطوات حازمة لإعادة تخطيط حدود مصر غرب الدلتا، وقاموا بعدة غزوات قوية ناجحة ضد الليبيين.

وفى الداخل بدأت عقب الوحدة مباشرة نهضة كبيرة فى الإنشاءات وبناء المعابد- خصوصا معبد الكرنك. وحدث تقدم كبير فى مختلف الفنون التى استلهمت فى إنجازاتها الأعمال الفنية العظيمة فى عهد الدولة الوسطى. وكان تحتمس الأول هو أول من بنى مقبرته في وادى الملوك. وهو واد يقع فى البر الغربى للنيل عند طيبة. وهذا الوادى معروف منذ الأزمنة السحيقة ويبدو أن اختياره كان لصعوبة الوصول إليه. واستمر استخدام وادى الملوك كجبانة لدفنهم خلال عصر الدولة الحديثة كله.

وخلف تحتمس الثانى حوالى سنة ١٥١٢ق.م. سلفه تحتمس الأول، ولكن يبدو أنه كان عليلا فلم يستطع مجاراة سلفيه فى قوتهما ونشاطهما. فلما مات فى سن صغيرة نسبيا كان ابنه تحتمس الثالث مازال صبيا. ولصغر سن الفرعون طالبت زوجة أبيه - الملكة حتشبسوت - بالوصاية على العرش، وما أن نجحت فى ذلك حتى وثبت إلى العرش نفسه فى السنة الثانية مباشرة - سواء بجهودها الذاتية ، أو مستعينة ببعض كبار موظفى الدولة. وتم تتوجيها بالفعل، وتنحية الملك الصغير، وبذلك انفردت بحكم مصر لمدة تقرب من عشرين عاما.

ولكن تنحية تحتمس الثالث لم تكن تعنى إزاحته عن العرش، بل فقط تجريده من سلطاته خلال حكم الملكة حتشبسوت ولا توجد لدينا معلومات

واضحة عن فترة حكم هذه الملكة. وأعظم آثار الملكة حتشبسوت هو معبدها الجنائزى بالدير البحرى، الذى أشرف على بنائه كبير أمناء الملكة، وأكثرهم قربا منها، سننموت. وقد سجلت على جدران هذا المعبد بعض المشاهد التى تشيد بإحدى بعثاتها التجارية إلى بلاد بونت.

من معروضات المتحف البريطانى : النموذج ١٧٤، وهو تمثال جرانيتى لسنتموت محتضنا الأميرة نفرو رع ابنة الملكة حتشبسوت. وكان سنتموت معلما وموجها لها بالإضافة إلى أعماله الأخرى.

وحوالى سنة ١٤٨٢ق.م. ، وهى السنة الحادية والعشرون من حكمه الأسمى، تمكن تحتمس الثالث من استعادة سلطاتة المطلقة . وليس هناك مايدل على كيفية حدوث ذلك ، وهل هو نتيجة لإقصاء الملكة حتشبسوت عن الحكم او نتيجة لموتها. ولم تكن حكومة تحتمس الثالث تناصب عهد حتشبسوت العداء فى أول الأمر، ولكن فى أواخر حكمه ظهرت روح العداء سافرة لها لدرجة توجيه حملات منظمة لتخريب آثارها ومحو ذكراها. وكشط اسمها من على أى أثر يحمله فى طول البلاد وعرضها.

وفى وقت متزامن - تقريبا- مع استعادة تحتمس الثالث لكامل سلطاته ثار الأمراء التوابع بسوريا ثورة عارمة، وطردوا سفراء مصر إلى جنوب فلسطين، وهناك احتمال كبير أن تكون هذه الثورة هى التى مكنت الفرعون من استرداد عرشه.

ولم يضيع الملك وقتا فى معالجة الوضع وقمع هذه الثورة بمنتهى الحزم والشدة، وانتصر على الثائرين انتصارا حاسما رائعا فى موقعة مجدو. ومع ذلك لم يقنع الملك بإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه- حسب وجهة النظر المصرية -

فى غرب آسيا، بل قاد عددا من الحملات المتتابعة أظهر فيها كفاءة نادرة وعبقرية عسكرية وتنظيمية، أدت إلى مد السيطرة المصرية إلى أغوار بعيدة شرقا عبر الفرات، وشمالا إلى حدود الحبشيين.

أما حكم المناطق المحتلة فقد عهد تحتمس الثالث به إلى الأمراء المحليين، تحت رقابة دائمة ومنتظمة من قبل مبعوثيه الشخصيين.

وبنفس الحسم والسرية مد الملك حدود مصر جنوبا إلى ما بعد الشلال الرابع فى السودان، وأنشأ طريقا تجاريا ومركزا للحراسة فى نطاق هذا الشلال.

وكانت النتيجة الإيجابية المفيدة لكل هذه الأعمال هى زيادة الروابط بين مصر والبلاد النائية، مما أدى إلي تنمية التجارة وتبادل السفارات بينها. وأدى الرخاء الذى عم البلاد، مع سهولة التبادل التجارى مع الممالك الأجنبية إلى نهضة الفنون فى مصر بشكل غير مسبوق. فبنيت معابد جديدة، وألحقت إضافات جديدة للمعابد القائمة، وازدهر فنا النحت والتصوير، كما استفادت الفنون الصغيرة من وفرة المواد الثمينة المستوردة.

نموذج رقم ٩٨٦ بالمتحف البريطانى.

واستمر العمل بسياسات تحتمس الثالث فى عهد خلفيه أمنحتب الثانى وتحتمس الرابع.

وكان أمنحتب الثانى يتمتع ببنية فريدة بالنسبة للمصريين، فقد كان طويلا قويا، مما مكنه من قيادة ناجحة فى جنوب السودان توغل فيها أكثر من كل الذين سبقوه، ولاشك أنه تمكن من المحافظة على حدود مصر عند الشلال الرابع حيث أوصلها سلفه، كما أمكنه المحافظة على حقوق مصر فى آسيا. واتبع تحتمس الرابع نفس السياسة الناجحة وزاد عليها توطيده لمركز مصر فى

أسيا بمصاهرته لملك الميتانيين – المملكة الحاجزة بين الامبراطوريتين المصرية والحبشية.

من معروضات المتحف البريطاني، فى قاعة التماثيل المصرية :

النموذج رقم ٦٤٥٦٤ : تمثال برونزى رقيق للملك تحتمس الرابع وهو راكع وفى يديه قاروتان من الدهانات المعطرة يرفعها للإله.

النموذج رقم ٤٣: تمثال جرانيتى للمركب المقدسة لزوجته الميتانية موت ام ويا.

تولى أمنحتب الثالث الحكم بعد أبيه تحتمس الرابع، فى وقت بلغت موارد مصر وثروتها حدها الأقصى.

وقد سجل أمنحتب الثالث على أحد الجعارين، التى أصدرها لتخليد بعض المناسبات المهمة. أن الامبراطورية المصرية فى الخارج كانت آمنة، وحدودها مستقرة عند كاروى بالسودان والنهرين فى غرب آسيا.

توجد بالمتحف البريطانى مجموعة من جعارين المناسبات المختلفة، معروضة فى القاعة المصرية السادسة.

وكانت أحوال مصر الداخلية فى ذلك العهد أيضا مستقرة وناجحة. لذلك لم تدع الحاجة إلى تجريد حملات عسكرية، فيما عدا واحدة جردت إلى السودان فى السنة الخامسة من حكمه، وهى من نوع الحملات التأديبية المحدودة. وربما يكون قد اضطر للقيام ببعض الجولات فى غرب آسيا فى السنوات الأولى من حكمه.

واقتصرت السياسة الخارجية فى منطقة السودان على بث العادات المصرية ودعم حضارة مصر هناك. لذلك نشطت حركة بناء المعابد فى تلك المناطق، لدرجة أنه فى بعضها أصبح أمنحتب الثالث يُعبد كأحد الآلهة.

وامتدت هذه السياسة المسالمة لتشمل أسيا، حيث بذلت الجهود لتعزيز أواصر الصداقة مع حكام الولايات التابعة لمصر وكذلك مع الدول الواقعة على حدود الامبراطورية. وقد عثر على بعض المراسلات الدبلوماسية فى زمنه وزمن خليفته اخناتون فى العمارنة. وهى كمراسلات مكتوبة باللغة الأكادية - لغة الدبلوماسية الدولية فى ذلك الوقت.

يوجد بعض هذه المراسلات فى قطاع آثار غرب آسيا بالمتحف البريطانى.

وقد تعززت العلاقات مع عدد من الملوك الأجانب عن طريق المصاهرة، حيث تزوج أمنحتب الثالث كثيرا من بناتهن. ففى السنة العاشرة لحكمه - على سبيل المثال- احتفل بقدوم واحدة منهن، هى الأميرة جيلوخيبا ابنة الملك شونارنا ملك ميتانى، وصدر جعران تذكارى بهذه المناسبة وزع فى أنحاء الامبراطورية.

واستغل أمنحتب الثالث ظروف مصر المواتية من استقرار ورخاء فتبنى سياسة التوسع فى البناء وتشجيع الفنون. وكان أن أقيمت المعابد العظيمة مثل معبد الأقصر، لعبادة أمون رع إله الامبراطورية . وتميز هذا المعبد بروعة البناء وتصميمه غير المعتاد وجماله الفائق فى مظهره. ومن بين مناظره الكثيرة فى المتحف البريطانى، يوجد أثر مهم جدا عبارة عن نقش محفور على لوحة تذكارية عثر عليها فى العمارنة (نموذج رقم ٤٧٣٩٩) .

ويظهر الملك فى هذا النقش على هيئة رجل مسن بدين، يجلس مترهلا

على كرسيه، وبجواره زوجته الملكة «تى» وهى سيدة ليست من أصل ملكى، إلا أن شخصيتها القوية تركت بصماتها على فترة حكم زوجها. ومما هو جدير بالذكر أن الوضع التصويرى للملك فى هذا النموذج مغاير تماما للأوضاع التصويرية التقليدية التى كانت تتبع فى تصوير الفراعنة (انظر التمثالين العملاقين الجالسين فى قاعة التماثيل المصرية (٤ . ٥) بالمتحف البريطانى).

ويبدو أن هذا الوضع التصويرى قد استخدم بعد ازدهار المدرسة الفنية الواقعية بعد ارتفاع ذكر عبادة آتون. وتوجد أدلة على عبادة قرص الشمس منذ عهد تحتمس الرابع (يوجد بالمتحف البريطانى النموذج رقم ٦٥٨٠٠ وهو جعران عليه نص مذكور فيه اسم آتون - والنموذج معروض فى القاعة المصرية السادسة). ومن المعروف أن عبادة آتون استمر ذكرها فى الارتفاع حتى احتضنها اخناتون بعد ذلك رسميا.

ولا نعلم على وجه الدقة ترتيب الأحداث فى أواخر عهد الملك أمنحتب الثالث. والمرجح حسب عادة هذه الأسرة أن يكون الملك أمنحتب الثالث قد أشرك معه فى الحكم، فى أواخر أيامه، ابنه امنحتب الرابع، الذى تسمى باسم اخناتون بعد انفراده بالعرش. وهناك احتمال آخر، يتلخص فى أن يكون اخناتون قد اعتلى العرش بالطريقة المعتادة بعد موت أبيه. وعلى أى الحالات فقد ظل اخناتون فى بداية حكمه فى طيبة. ولكن حماس الملك الشاب لعبادة آتون، الذى بنى له معبدا بالكرنك، ألهب النزاع بينه وبين كهنه آمون وشيعتهم.

وقد حسم الملك هذا النزاع مبكرا بنقل العاصمة من طيبة إلى مدينة فى مصر الوسطى أسماها آخت- أتون أى «أفق آتون» (تسمى هذه المدينة حاليا العمارنة)، ثم ما لبث أن حرم عبادة آمون وآلهة الأقاليم الأخرى. وفى عاصمته الجديدة أخذ فى توطيد عبادة آتون مستعينا فى ذلك بزوجته الملكة نفرتيتى وبعض رجال بلاطه المخلصين.

أما سياسة اخناتون الخارجية فقد اتسمت بالسلبية، إذ لم يحاول أن يفعل شيئا فى سبيل المحافظة على الامبراطورية التى ورثها عن أسلافه. وأدت سلبيته وعدم اكتراثه إلى تنشيط النزعات الانفصالية فى الامبراطورية، وإلى مهاجمة الدول المعادية للمناطق الموالية لمصر. وكثير من رسائل العمارنة تحتوى على نداءات عاجلة للمساعدة من الأمراء التوابع طلبا للمعونة للتخلص من ضغط الأعداء. وهذه الرسائل تعطى صورة حية عن كيفية انحسار النفوذ المصرى تدريجيا فى سوريا أمام قوة الجيشين المتنامية.

ويظهر اخناتون فى تماثيله والنقوش البارزة التى تمثله على هيئة شخص ذى بنية شاذة - متضخم الرأس، محدوب الظهر بشكل واضح، فخذاه ثقيلتان - لا ندرى مدى انطباقها على تركيبه البنيوى الحقيقى، ولعلها إحدى الانطلاقات الفنية حسب الأسلوب التعبيرى الذى انتشر فى ذلك الوقت .

وعموما فإن نظام اخناتون لم يحظ بتأييد يذكر. لدرجة أنه قرب نهاية حكمه الذى استمر سبعة عشر عاما جوبه بمعارضة بلغ من قوتها أنها اضطرته لتعديل سياساته. وأضيف إلى متاعبه بسبب الاضطرابات فى أنحاء الامبراطورية، تدهور مركزه الداخلى نتيجة الحركات المعادية التى حتمت السعى إلى التصالح مع هيئة كهنة آمون، الأمر الذى يرجح أنه حدث عقب وفاته.

ويبدو أن التصالح بين عبادتى آتون وآمون بدأ يتحقق فى عهد الملك سمنخ كارع خليفة اخناتون، الذى شاركه العرش لمدة سنتين قبل وفاته، لكن سمنخ كا رع لم يحكم منفردا سوى أشهر قليلة فقط. إذ أنه توفى صغيرا .

وبعد سمنخ كا رع تولى توت عنخ آمون حكم مصر. وفى عهده حدثت الردة إلى الأوضاع القديمة، فاسترد آمون مكانته السالفة باعتباره الإله الرسمى للدولة، ومن ثم عاد مركز الحكم إلى طيبة وهجرت آخت آتون.

فلما مات توت عنخ آمون فى ريعان شبابه خلفه على عرش مصر الملك أى الذى كان فى ذلك الوقت أكبر النبلاء سنا. وساعد على توطيد مركزه زواجه من أرملة توت عنخ آمون، الملكة عنخ اس ان آمون. وفى عهده جاءت النهاية الحقيقية لفترة العمارنة. وعلى أية حال فإن فترة حكم الملك أى كانت قصيرة. وبعده تولى الحكم القائد حور محب.

وكان حور محب من كبار مستشاري توت عنخ آمون، كما كان له دور فى معاونة آى على اعتلاء العرش - ربما ليمهد لنفسه الطريق كى يشغل المنصب من بعده. وبتوليه السلطة سنة ١٣٤٨ ق.م. تقريبا دخلت مصر فى عصر جديد. فقد كان حور محب إداريا وقائدا عظيما فأرسى قواعد الحكم ووطد مركز الحكومة. واتبع سياسة طموحة تهدف إلى إعادة الاستقرار داخليا وخارجيا، والوصول بالأحوال السياسية إلى الأوضاع التى استقرت قبل فترة حكم اخناتون. وقد أقام حور محب لنفسه مقبرة رائعة فى جبانة سقارة. وقد اقتنى المتحف البريطانى بعض لوحات هذه المقبرة.

وأثناء حكم الأسرة التاسعة عشرة اهملت فترة العمارنة تماما، وقوطعت بصفة رسمية، لدرجة أنه قد محى اسم اخناتون تماما من سجل الملوك. كذلك كشط اسمه حيثما وجد فى النصوص الأثرية. وخربت مدينة اخت آتون ومبانيها. أما حور محب فهو وحده الذى نال تقديرهم، فاعتبره ملوك الأسرة التاسعة عشرة الخليفة المباشر للملك امنحتب الثالث.

لم يكن حور محب منتميا إلى الأسرة الملكية الثامنة عشرة، لذلك يمكن النظر إلى فترة حكمه الطويلة باعتبارها فترة انتقالية. بعدها تولت أسرة جديدة حكم البلاد. والأسرة التاسعة عشرة أوجدها أحد قواد حور محب - رمسيس الأول- سنة ١٣٢٠ ق.م. تقريبا. وهناك دلائل تشير إلى أن حور محب نفسه هو الذى هيأ رمسيس الأول لاعتلاء العرش.

فقد كان من قواد الجيش ثم اختاره حور محب وزيرا له على الوجه البحرى. والرعامسة من العائلات التى علا شأنها فى الوجه البحرى، لذلك نقلوا العاصمة إلى بلدة بى رعمس، وهى المدينة التى حلت محل أفاريس عاصمة الهكسوس بالدلتا، مع الاحتفاظ بطيبة كعاصمة إدارية.

وقد حكم رمسيس الأول لفترة قصيرة ثم تلاه سيتى الأول. وسار كلاهما على نهج حور محب، فأعادوا الكبرياء الجريحة للآلهة المصرية وردا لها الاعتبار واهتما بمعابدها. كذلك قاما بتأكيد سيطرة مصر على النوبة وغرب آسيا. وأنجز الكثير من الأعمال فى معبد آمون بالكرنك. ولكن أعظم إنجازات سيتى الأول فى مجال البناء والتشييد، كان إقامته لمعبد أوزيريس الجديد فى أبيدوس.

وفى المجال الخارجى انشغل سيتى الأول فى توطيد سلطة مصر على النوبة، وطرد الليبيين من غرب الدلتا. ولكن أعظم أعماله فى هذا المجال كان توسيع حدود الامبراطورية المصرية فى آسيا حتى الأورنت. وفى هذا الوقت كان الحيثيون قد أصبحوا مصدر خطر حقيقى على الامبراطورية المصرية فى آسيا، فاشتبك معهم سيتى الأول وهزمهم قرب الأورنت إلا أنه ارتد بعد ذلك إلى قادش.

كان رمسيس الثانى، الذى خلف أباه سنة ١٣٠٤- بعد أن شاركه الحكم لفترة - متحرقا للعودة إلى الكفاح. فقام فى السنة الرابعة من حكمه بحملة أولية - استطلاعية- ثم ما لبث فى السنة التالية أن شن هجوما كبيرا على الحيثيين تطور إلى معركة طاحنة عند قادش على أورنت. وتتعارض التقارير المصرية والتقارير الحيثية فى تقييم نتائج المعركة. والأرجح أن المعركة لم تحسم لصالح أى من الفريقين. ومع ذلك فقد أذاع رمسيس الثانى أنه قد أحرز نصرا ساحقا عزى الفضل فيه إلى شجاعته هو شخصيا واحتفل بالمعركة فى صورة ضخمة بنقشها على كثير من جدران المعابد بمصر والنوبة

من معروضات المتحف البريطانى : أجزاء من نسختين من البردى، معروض منهما بعض صفحات (النموذجان ١٠١٨١، ١٠٦٨٣) فى القاعة المصرية الثالثة.

وقضت الضرورة فى السنوات التالية من حكم رمسيس الثانى بتجريد حملات تأديبية للمحافظة على أمن الامبراطورية فى آسيا. فلما حلت السنة الحادية والعشرون من حكمه وقع رمسيس الثانى معاهدة سلام مع خاتوسيل ملك الحيثيين، توثقت عراها بزواج رمسيس الثانى من الأميرة الحيثية ابنة خاتوسيل نفسه، ومنذ ذلك الوقت حتى نهاية حكم رمسيس الثانى الطويل- الذى استغرق سبعة وستين عاما- حل السلام فى ربوع الامبراطورية المصرية الآسيوية.

وبصفة عامة توجهت كل الجهود فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثانى لحسم كافة المشاكل الخارجية. وقد خلد رمسيس الثانى إحدى حملاته على النوبة بنقش بارز حفر على جدران معبد محفور فى الصخر عند بيت الوالى.

ومن معروضات المتحف البريطانى: قوالب كبيرة على جدران القاعة المصرية الثالثة، تعتبر نسخة منقولة لهذه المشاهد.

وأثناء حكم رمسيس الثانى حدث صدام مع قراصنة البحار المعروفين باسم الشرادنة - وهو ارهاص لما سوف يحدث بعد ذلك على أيديهم من اضطرابات أكثر خطورة فى عهد من سيخلفونه.

وفيما عدا تحصين الدلتا تحسبا لأى طارئ فى منطقة غرب الدلتا- من جهة الليبيين- فقد انقضت الأيام المتبقية من حكم رمسيس الثانى فى حالة من السلام النسبى. وقد اتسمت فترة حكمه الأولى عموما بوجود جهاز إدارى

وسياسى كفء، واتباع سياسة قوية وحازمة فى النوبة وآسيا، مما مكن الملك من التفرغ. بعد ذلك، لتشييد المبانى العظيمة وتخليد ذكراه باعتباره أعظم فراعنة مصر.

وقد سجل رمسيس الثانى أعماله بنقشها على جدران المعبد الذى بناه والده سيتى الأول لعبادة أوزيريس بابيدوس بعد أن استكمل فى عهده. وفى النص المنقوش يصف نفسه كحاكم واثق من نفسه ومن قدرته على تحقيق أعظم الأعمال. والخلاصة أن رمسيس الثانى نجح تماما فى توطيد سمعته، لدرجة أنه فى العصور الكلاسيكية وصف بأنه أعظم ملوك مصر بلا منازع.

ولا شك فى أن سبب رفعة شأنه بهذه الصورة يكمن فى المبانى الشامخة التى أنشأها فى شتى أنحاء مصر فى عهده. وأحد الصروح التى أقامها، معبد أبو سنبل الصخرى الذى نحت فى النوبة، ويحتوى على أربعة تماثيل ضخمة للملك وهو جالس. كذلك بنى الكثير من المعابد فى جهات أخرى، وأضاف إضافات جديدة إلى المعابد الموجودة. وأقيمت له التماثيل على مختلف أشكالها - كبيرة وصغيرة.

ومع كل ذلك فقد اعتاد رمسيس الثانى - والرعامسة بصفة عامة - على اغتصاب تماثيل الملوك السابقين ونسبتها إلى أنفسهم، حيث كانوا يمحون أسماء هؤلاء الملوك على آثارهم ليكتبوا أسماءهم بدلا منها.

كان لرمسيس الثانى الكثير من الأولاد الذكور، تولى العرش من بينهم بعده الملك مرنبتاح وكانت سنه متقدمة. وسرعان ما جابهته كارثة كانت سحبها تتجمع منذ عدة سنوات. فقد أدت الحركات العرقية فى شمال آسيا الصغرى وايجة إلى محاولات من جانب القبائل المهاجرة لكسب موضع قدم لهم فى الدلتا

وكان رمسيس الثانى قد تغلب على احدى هذه الموجات من جانب الشرادنة، إلا أن قبائل أخرى نجحت فى توطيد مركزها فى غرب الدلتا. ولم تكن الحصون التى أقامها رمسيس الثانى قادرة على التعامل الا مع الغارات المحلية على أكثر تقدير. واجتاحت الدلتا فى السنة الخامسة لعهد مرنبتاح غزوة كبيرة على الدلتا. فواجههم مرنبتاح عند بى - ير - وهو مكان غير معروف فى غرب الدلتا، وانتصر عليهم انتصارا حاسما، أراح مصر لفترة من تهديد الجبهة الليبية.

وتاريخ الفترة الأخيرة من حكم الأسرة التاسعة عشرة من الصعب متابعته، لدرجة أن سلسلة فراعنة هذه الفترة ليست مؤكدة. والملخص التاريخى المسجل فى بردية هاريس يقول أن التدهور بدأ يعم أرجاء البلاد، لدرجة أنه لفترة ما خضعت البلاد لحكم شخص سورى يدعى «أرسو»، الذى يضاهى عادة بالمستشار باى أحد رجال البلاط ذوى النفوذ البارز فى أواخر أيام الأسرة.

ولكن يبدو أن وصف حالة الفوضى فى البلاد التى بولغ فيها فى ذلك الوقت لإضفاء الأهمية على وافد جديد يسمى ست نخت مؤسس الأسرة العشرين الجديدة. وبعد فترة حكم قصيرة خلفه على العرش الملك رمسيس الثالث- آخر الملوك العظماء فى الدولة الحديثة. وقد شهدت البلاد فى عهده صحوة من المجد والرخاء، إلا أن البلاد تعرضت لغارات متكررة كانت نذيرا بأفول نجم الامبراطورية المصرية.

وقد قام رمسيس الثالث بقيادة ثلاث حملات كبيرة لقمع تلك الاغارات التى كانت كلها موجهة للدلتا. ووقعت اثنتان منها فى السنتين الخامسة والحاية عشرة من فترة حكمه ضد الليبيين وحلفائهم من قبائل البحر التى أهمها قبائل المشوش.

كذلك جرت محاولة جريئة لغزو البلاد برا وبحرا من جهة الشرق، شنتها أيضا شعوب البحر. لكن الجدير بالذكر أنهم لم يكونوا من الشرادنة، حيث أن هؤلاء كانوا قد انضموا كمرتزقة للجيش المصرى. وفى كل هذه المعارك حقق رمسيس الثالث انتصارات رائعة، وحمى أرض مصر من الغزو الخارجى.

ولم يقم رمسيس الثالث فيما عدا ذلك بغزوات كبيرة، بل اكتفى بحملات صغيرة ضد القبائل المتمردة فى جنوب فلسطين هى أقصى ما أمكنه تحقيقه خارج حدود مصر.

ورغم ذلك فقد ساد السلام ربوع مصر معظم فترات حكم رمسيس الثالث، فأمكنه العناية بالتجارة وإنشاء كثير من المبانى. وأهم آثاره المعمارية هو معبده الجنائزى الذى أقامه فى مدينة هابو ، الذى صار المركز الإدارى لجبانة طيبة فى أواخر عهد الأسرة العشرين.

ويمكن تكوين فكرة عن مدى رخاء البلاد فى عهد ذلك الملك من قائمة العطايا والمنح التى وهبها للمعابد، حيث أنها مسجلة فى بردية هاريس العظيمة، وهى من محفوظات المتحف البريطانى فى الوقت الحالى، ويوجد جزء منها فى القاعة الثالثة المصرية بالمتحف أعدها خلفه رمسيس الرابع لتخليد ذكرى والده.

وهناك من الأسباب ما يدعو للشك فى أن أحوال مصر فى عهد رمسيس الثالث كانت على الصورة الوردية التى أدعتها بردية ابنه، فهناك وثائق أخرى تدل على نشوب اضراب بين العمال فى الجبانة الملكية، وحدوث مؤامرة فى حريم الملك كان الغرض منها اغتيال الملك شخصيا فى أواخر أيامه. مثل هذه الحركات تعتبر دليلا على تزعزع الاستقرار السياسى فى أواخر عهد الملك رمسيس الثالث.

وقد تولى العرش بعد وفاة رمسيس الثالث وحتى نهاية عهد الأسرة

العشرين (من ١١٦٦- ١٠٨٥ ق.م. تقريبا) ثمانية ملوك كلهم يحمل اسم رمسيس. وفى عهدهم فقدت مصر بقايا امبراطوريتها فى آسيا، مما أدى إلى تدهور أوضاع مصر الاقتصادية بشكل ملحوظ. وقرب نهاية عهد الأسرة اكتشف أن المقابر الملكية نفسها بمنطقة طيبة قد تعرضت للسطو الجماعى. وقد حفظت إلى اليوم معظم محاضر تحقيق هذه الواقعة والتصرفات القانونية حيالها.

من مقتنيات المتحف البريطانى : بردية أبوت (نموذج ١٠٢٢١) والبردية رقم ١٠٠٥٣، وهما معروضتان فى القاعة المصرية الثالثة، وموضوعهما يحكى واقعة السطو المذكورة.

وفى أواخر عهد رمسيس الحادى عشر شاركه فى السلطة الفعلية كبير كهنة آمون المسمى حريحور ولقب نفسه بملك طيبة، ومعه سمندس الذى تولى حكم الوجه البحرى من تانيس. أما الملك نفسه فقد قنع بالاعتكاف فى قصره بالدلتا بدون ممارسة أية سلطات فعلية. وهذه السمة الجديدة، وهى تقسيم السلطة بين الجنوب والشمال فى ظل حكومتين يظللهما حسن الجوار، أصبحت من السمات التى استمر الحال عليها بعد ذلك لأجيال عديدة.

الفترة المتأخرة من عصر الأسر

(١٠٨٥- ٣٣٢ ق.م.)

بعد وفاة رمسيس الحادى عشر طالب بالعرش سمندس، معتمدا على وجود صلة بينه وبين البيت المالك، وأسس أسرة جديدة فى الشمال هى الأسرة الحادية والعشرون- حسب تقسيم مانيتون - واتخذ تانيس عاصمة لها.

وفى نفس الوقت استولى على السلطة فى الجنوب خط من كبار كهنة آمون، والمرجح أنهم من سلالة حريحور، واتخذوا طيبة مقرا لهم، لكن هذه

الأسرة الكهنونية لم تحاول أن يحمل ملوكها لقب ملك مصر العليا والسفلى، وقلما وضعوا أسماءهم داخل خراطيش. وقد وجهوا جهودهم بالكامل نحو تحسين أوضاع الإله آمون بالتعاون مع السلطة الرسمية بتانيس. ويبدو أن كلا الطرفين قنع بما فى يديه، ولم يحاول التدخل فى شئون الآخر.

وكان أحد الإنجازات العظيمة للأسرة الكهنونية بطيبة، هو محاولتها انقاذ المقابر الملكية القديمة بطيبة، وهى المقابر التى تسبب نهبها، أيام الأسرة العشرين، فى فضيحة مدوية. لذلك قاموا بالمحافظة على المومياوات التى تتلف فأعادوا تغليفها، وحملوا معها ما تبقى من أمتعة الدفن الذى لم يتلف، ثم خبأوها فى مقبرتى الملكة اين حابى بالدير البحرى، والملك امنحتب الثانى فى وادى الملوك. واستقرت المومياوات فى أماكنها الجديدة، وحولها مقابر كبار الكهنة -ملوك الأسرة الحادية والعشرين- وعائلاتهم حتى أواخر القرن التاسع عشر. وفى هذه الأماكن الخفية عثر على كتاب الموتى الخاص بـ بى نجم، كبير كهنة آمون، أيام الملك سى آمون.

من معروضات المتحف البريطانى :

١- بردية كامبل (نموذج رقم ١٠٧٩٣) : كتاب الموتى تأليف بى نجم - كبير كهنة آمون - فى عهد الملك سى آمون.

٢- صندوق نس خوتسو - زوجة بينوزم - وهو خاص بتماثيل الأوشبتى. المعروضة فى القاعة المصرية الثالثة.

٣- كتاب الموتى من تأليف خريحور ونجمت (نموذج رقم ١٠٥٤١).

ولم يكن ملوك تانيس على درجة كبيرة من الأهمية والقوة، كذلك فقدوا سلطتهم بسهورلة، وانتقلت السلطة حوالى ٩٤٥ ق.م. إلى الأسرة الثانية والعشرين.

وفد الليبيون (المشوش) أثناء الأسرة العشرين، وخدموا فى الجيش المصرى كمرتزقة، وأسسوا تجمعات فى الأراضى المصرية معظمها فى الدلتا. ومن أحد هذه التجمعات - فى بوباستيس (تل بسطة) - ظهر الملك شيشنق الأول، الذى ينتمى لأسرة عسكرية ليبية، وعمل كقائد لإحدى الوحدات العسكرية تحت امرة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين. ثم أفلح فى الانفراد بالحكم ليؤسس الأسرة الثانية والعشرين.

بعد ذلك تمكن أيضا من كسر القاعدة التى كانت متبعة فى الأسرة السابقة، فحصل على تأييد كهنة آمون، وفرض ابنه كبيرا للكهنة هناك. وتذكر التوراة (سفر الملوك ١-٢٥-٢٦) أن شيشنق قد جرد حملة واحدة على أقل تقدير إلى شمال فلسطين استولى فيها على أموال معبد أورشليم، ولكن التوراة لم توضح إن كانت الحملة مجرد غارة عادية جردت لهذا الغرض، أم أنها كانت أصلا حملة هدفها معاونة أحد المطالبين بعرش مملكة يهوذا ضد خصمه.

ويستدل من قلة الوثائق التى وصلتنا من عهد الأسرة الثانية والعشرين على عدم استقرار أحوال مصر بالمرة فى هذه الفترة. وعلى الرغم مما ثبت بخصوص تحرك الملك شيشنق الأول لمهاجمة حدود طيبة قرب مملكة الشمال، فإن قوات طيبة الانفصالية كانت دائما تتمرد، خصوصا بعد أن أصبح كبير كهنة طيبة - وهو عادة واحد من أبناء الملك- لا يقيم بطيبة. وحدث أثناء حكم أوسركون الثانى (٨٧٤ - ٨٥٠ق.م.) أن اتخذ أحد كبار كهنة طيبة - واسمه حرسا ايزة - لنفسه لقبا ملكيا، ولكنه سرعان ما أزيح من منصبه ليتولاه ابن الملك.

من معروضات المتحف البريطانى فى رواق التماثيل المصرية : (النموذج رقم ١٠٧٧) تمثال للملك أوسركون الثانى مع زوجته الملكة كاروما.

ويمكن استنتاج حالة البلاد أثناء حكم هذه الأسرة من نقش طويل لكبير الكهنة أوسركون بن تاكلوت الثانى فى معبد الكرنك، يدل على وجود جماعات تعمل متفرقة فى البلاد، وأنه على الرغم من حسن العلاقات بين طيبة والملك، فإن الأمن فى البلاد لم يكن مستتبا.

وأثناء تولى شيشنق الثالث الحكم (٨٢٥-٧٧٣ ق.م) نشبت بعض الاضطرابات التى أدت إلى تغيير هيئة الكهنة بطيبة، وكذلك إلى تأسيس نظام حكم مواز فى الدلتا- الأسرة الثالثة والعشرون- أسسه حكام بوباسطة سنة ٨١٨ ق.م.

وكان غياب السلطة المركزية القوية فى العصر القديم يتسبب دائما فى تحلل الدولة السريع إلى وحدات أصغر. لكن الوضع فى عهد الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين لم يكن متفاقما، ذلك لأن حكام هاتين الأسرتين كانوا على علاقة طيبة بكهنة آمون فى الجنوب، مما أدى إلى الحفاظ على وحدة البلاد- فى الظاهر على الأقل. ولكن منذ سنة ٨١٨ - أى منذ ظهور الأسرة الثالثة والعشرين انتهى هذا الاتحاد المظهرى. مما أدى إلى تصاعد نزعة الانقسام. وخلال حكم الملوك الأواخر من الأسرة الثانية والعشرين، ومعاصريهم من ملوك الأسرة الثالثة والعشرين، اشتد تفاقم الوضع، وازداد التفكك، ولم يتوقف إلا على يد أحد الغزاة من الجنوب.

توجد مملكة نباتا بجوار الشلال الرابع فى السودان، وكانت فى وقت ما تحت السيطرة المصرية، ثم تمكنت من ابعاد المصريين عنها فرحلوا جهة الشمال (نحو أسوان). وبعد استقلالها تولى الحكم فيها أسرة سودانية محلية، احتفظت بمعظم العادات المصرية ومن بينها عبادة آمون.

وقد تمكن أميرها «كاشتا» من مد نفوذه فاحتل جنوب السودان بالكامل. ثم أتى خليفته بعنخى فتدخل بشكل سافر وحاسم فى الشئون المصرية. وكان

أكثر خصومه عنادا حاكم من الحكام الأقوياء من سايس بمصر السفلى، يسمى تف نخت.

بدأ جهاده باحتلال منف، ثم بدأ يخطط لمد سلطته نحو الجنوب. فقام بعنخى سنة ٧٢٧ بحملة كبيرة داخل حدود مصر للتصدى لأهداف خصمه التوسعية، منتهزا فرصة التفكك الذى أصاب البلاد. فتقدم حتى وصل إلى منف فاستسلم له كل الحكام المحليين. وأخيرا لم يجد نف نخت بدا من التسليم المطلق لبعنخى الذى سمح له بالبقاء فى السلطة، فأسس أسرة قصيرة الأمد هى الأسرة الرابعة والعشرين. وارتد بعنخى إلى بلاده واكتفى بفرض سيطرته على مصر من عاصمته نباتا.

بعد ذلك قام أخو بعنخى باحتلال مصر بصفة نهائية، إذ تمكن من دحر بوخوريس - خليفة تف نخت - فى معركة قتل فيها بوخوريس، وما لبث أن نصب نفسه فرعونا على مصر بقطريها، واتخذ ببة مقرا له. وتحت حكم هذه الأسرة - الأسرة الخامسة والعشرين - والتى يعتبر بعنخى أول ملوكها، حدثت نهضة كبيرة فى الثقافة والفنون بمصر، من أمثلتها الرأس المحفوظ فى المتحف البريطانى (نموذج ٦٧٩٦٩). وبلغت هذه النهضة أوجها فى الأسرة التالية - السادسة والعشرين.

وفى مجال المعمار رممت المعابد، وأضيفت إليها مبان جديدة، كما دعمت العبادات بالهبات المالية التى كانت فى أشد الحاجة إليها. وقد تجلى إهتمام هؤلاء الملوك بعبادة آمون فى اضفائهم لمزيد من الأهمية علي منصب الرفيقة الإلهية (المحظية الملكية لآمون)، فكانوا دائما يشغلونها بإحدى أميرات البيت المالك، التى كان عليها أن تتبنى من سوف تخلفها فى شغل هذه الوظيفة المهمة. وفى عهد الأسرة الخامسة والعشرين كان لهؤلاء الرفيقات الإلهيات نفوذ حقيقى فى طيبة. وأولهن كانت الأميرة آمون اردس ابنة كاشتا وأخت بعنخى نفسه.

من معروضات المتحف البريطانى، فى القاعة المصرية الخامسة : النموذج رقم ٤٦٦٩٩، تمثال صغير الرفيقة الملكة الأميرة آمون اردس.

إلا أن اهتمامهم بعبادة آمون، لم يمنع هؤلاء الحكام النوبيين من توجيه عنايتهم إلى الإلهة المصرية الأخرى، ذات الصبغة القومية. ومن الأدلة على إهتمامهم بعبادة بتاح بمنف تأليف درامى مسجل على كتلة حجر من البازلت بأمر من شباكا نفسه.

توجد نسخة من هذا التأليف فى قاعة التماثيل المصرية بالمتحف البريطانى هو النموذج رقم ٤٩٨.

وفى عهد الملك طهارقا، وهو أحد الملوك المتأخرين من هذه الأسرة، زادت الأعمال المعمارية الإنشائية فى مصر والسودان. فجدد طهارقا أبنية معبد آمون بمدينة كاوا بالنوبة، وهى مدينة مصرية قديمة بنى بها هذا المعبد منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولم يكتف بذلك بل شيد بنفس المدينة معبدا جديدا لآمون.

من معروضات المتحف البريطانى: تمثال كبش راكع بين قدميه الأماميتين تمثال واقف لأحد الملوك (نموذج ١٧٧٩) والتمثال من معبد آمون بكاوا.

كانت الفترة الأخيرة من حكم طهارقا ثم فترة حكم خليفته تانوت آمون حافلة بالمشاكل بسبب الهجمات التى بدأ يشنها الأشوريون - القوة الصاعدة فى ذلك الوقت - من المشرق.

وبلغ الصراع أوجه عندما تمكن أسرحرون ملك أشور من اختراق الحدود المصرية والتوغل حتى منف مجتاحا فى طريقه كل من صادفه من الحكام الصغار، الذين يبدو أنهم تمتعوا بقدر كبير من الاستقلال عن السلطة المركزية.

لكن طهارقا تمكن من التصدى للموقف واستعادة منف، وعزل الجهـاز الإدارى الذى أقامه أسرحون. إلا أن الأشوريين عادوا مرة أخرى سنة ٦٦٧ ق.م. بقيادة ملكهم الجديد أشوربانبيال، فاجتاح الدلتا ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى طيبة، ثم عاد إلى نينوى حاملا معه الكثير من أمراء الدلتا. وهناك اتهمهم بالتآمر ضد الحكم الأشورى. وكان ضمن هؤلاء الأسرى الأمير نخار، من سايس – ويعتقد أنه أحد أحفاد ابوخوريس . وقد حظى نخار برضا أشور بانبيال فأعاده إلى سايس وأعاد إليه منصبه فى الحكم المحلى. كما عين ابنه أميرا لأتريب.

أما طهارقا فقد فر إلى النوبة حيث مات سنة ٦٦٤ ق.م. وقام خليفة تانوت آمون بتجريد حملة لاستعادة مصر، وتمكن بالفعل من احتلال منف وقتل نخاو حاكم سايس، كما تغلب على كل أمراء الدلتا، لكن انتصار تانوت آمون كان قصير الأجل إذ لم يلبث أشور بانبيال أن عاد إلى مصر بنفسه على رأس حملة أخرى احتل فيها منف وواصل تقدمه فاحتل طيبة أيضا التى نهبتها قواته. ونصب بسماتيك الأول – الذى كان قد فر إلى أشوربانبيال اثر مقتل والده – حاكما تابعا (لأشور) على مدن سايس وأتريب ومنف. وانتقلت الإدارة فى مصر السفلى – وربما مصر العليا أيضا من شمال طيبة – إلى أيدى الحكام المحليين. وتسمى هذه الفترة حكم الاثنى عشر – وهى تسمية أطلقها اليونانيون فيما بعد عليها وكانت إدارة الوجه القبلى فى هذه الفترة بين يدي المحظة الإلهية الملكية شبن وبت الثانية، ويعاونها فى ذلك أحد كبار كهنة آمون واسمه منتومحات (نموذج ١٦٤٣ بالمتحف البريطانى).

وقد استعان بسماتك بالليديين والكاريين المرتزقة، مما مكنه من توحيد معظم مصر السفلى والوسطى، واعتبر نفسه أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين. وقد أثبت جدارته بذلك عندما تمكن من إرسال ابنته نيتوكريس إلى

طيبة ودفع المحظية الإلهية شبن وبت الثانية إلى تبنيها. وبذلك أحكم قبضته وفرض سيطرته على مصر بالكامل، وذلك سنة ٦٥٦ ق.م. ولم يكتف بذلك، بل أنه عندما أحس بقوته كف عن دفع الجزية لآشور، وبذلك تخلص من نفوذها على مصر.

ويطلق على حكم الأسرة السادسة والعشرين اسم العصر الساييسى (الصاوى). واستمر هذا العصر قرنا من الزمان ازدهرت فيه أحوال مصر بشكل ملحوظ. وفى هذا العصر كانت الصحوة الفنية التى بدأت فى العصر السابق تؤتى ثمارها بصورة غير مسبوقة، مستلهمة النتاج الفنى للدولتين القديمة والوسطى - كما لاحظنا فى كل صحوة من نوعها.

وسادت النزعات السلفية، لدرجة إعادة إحياء النصوص الهرمية نفسها. كذلك بدأ الارتداد إلى الألقاب والوظائف القديمة، وأصبحت مصر قبلة المهاجرين الأجانب الذين اجتذبتهم فرص التجارة، والعمل كمرتزقة.

ووجدت جاليات كبيرة أجنبية من أحياء خاصة بهم، مما أدى إلى زيادة الرخاء فى البلاد. وكان أكبر هذه التجمعات فى مدينة نوقراطيس بالدلتا، والتى يظن أنها أنشئت فى عهد الملك بسماتيك الثانى للجالية اليونانية. وقد أصبحت هذه المدينة فى أواخر عهد هذه الأسرة هى المركز الوحيد للتجارة مع اليونان.

وفى السنوات الأخيرة من حكم بسماتيك الأول كان البابليون بقيادة نابوبولاسار قد تغلبوا على الأشورين، فنشأ بذلك خطر جديد على مصر. وقد حقق المصريون بقيادة نخاو الثانى بعض النجاح سنة ٦٠٩ ق.م. فى غزوة قتل فيها يوشع ملك جوديا عند مجدو (سفر الملوك الثانى) ، إلا أنه منى بعد ذلك سنة ٦٠٥ق.م. بهزيمة ساحقة على أيدى البابليين بقيادة نبوخذ نصر فى قرقميش.

وكان عهد بسماتيك الثانى عهد سلام نسبى، جردت فيه حملة عسكرية واحدة إلى نباتا لردع النوبيين ومنعهم من العودة إلي مصر. وعلى اثر هذه الحملة انتقلت مملكة النوبة إلى مروى، مع الإبقاء على نباتا كمركز دينى. وبعد ذلك أصبحت علاقات مصر مع النوبة مقطوعة وان ظل حكام النوبة متأثرين بالثقافة المصرية.

ووجه الفرعون ايزيس - أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين - (٥٨٩- ٥٧٠ ق.م.) اهتمامه بالجبهة الشمالية. وأحيانا ما كان يتدخل فى الصراعات الناشئة فى سوريا وفلسطين. ولكنه عندما أرسل جيشا مصريا لمعاونة الليبيين فى القضاء على المستعمرة اليونانية فى سيرين، منى هذا الجيش بهزيمة منكرة، كانت السبب فى سقوطه.

فقد نشبت على اثر هذه الهزيمة حرب أهلية فى الدلتا، أطيح فيها بالملك ايزيس، ليحل محله الملك أحمس الثانى الذى لا ينتمى للعائلة الملكية. والمعلومات عن هذا الملك قليلة جدا ومصدرها بعض المؤرخين اليونانيين.

ويبدو أن أحمس الثانى قد تفرغ للشئون الداخلية، وتوطيد أواصر حسن الجوار مع الدول المتاخمة. وفى عهده كانت عابدة آمون الملكية هى الأميرة عنخ ان اس نفر ايب رع.

تابوت هذه المحظية الحجرى الضخم معروض في رواق التماثيل بالمتحف البريطانى - رواق التماثيل المصرية (نموذج ٣٢).

وقد مات أحمس الثانى سنة ٥٢٦ ق.م. بعد أن أفلح بالكاد فى تفادى الكارثة التى هددت مصر سنوات عديدة منذ بزوغ نجم الامبراطورية الفارسية فى الشرق.

وواجه خليفة بسماتيك الثالث الكارثة المحتومة، إذ هزم سنة ٥٢٥ق.م. في موقعة بيلوزيوم، وحوصرت منف ثم أخذت عنوة، وبعدها استسلمت البلاد للملك الفارسي قمبيز الذى يعد رأس الأسرة السابعة والعشرين.

والأسرة السابعة والعشرين تضم ملوكا فارسيين. وفى عهدهم اعتبروا مصر ولاية فارسية، ولذلك أعادوا تنظيمها على هذا الأساس . وفى التراث اليونانى نجد كثيرا من الاشارات إلى معاناة البلاد فى تلك الفترة. ولكن الشواهد المعاصرة لا تؤيد هذه الأقوال اليونانية. فقد أجرى قمبيز ومن بعده ابنه دارا الأول تغييرات إدارية كثيرة أفادت البلاد كثيرا. فعلي سبيل المثال صنفت القوانين وأعيد تنسيقها، ونفذت مشاريع عمرانية كثيرة منها إكمال العمل فى قناة نخاو الثانى لوصل نهر النيل بالبحر الأحمر، وحتى المعابد لم يهملوا شأنها بل بنوا معابد جديدة ورمموا المعابد القديمة.

وفى السنوات التى تلت هزيمة الفرس على أيدى الإغريق فى موقعة ماراثون (٤٩٤ ق.م) ، جرت محاولة لطرد الفرس من مصر ، لكن اكسركسيس خليفة دارا الأول (٤٨٦ق.م) تمكن من قمع الثورة وفرض إدارة صارمة على البلاد.

والمعلومات المتوفرة عن أحوال مصر فى القرن الخامس الميلادى نادرة فى الأخبار المعاصرة، ومعظمها من مصادر اغريقية.

وكان اعتلاء ارتاكسرسيس الأول سنة ٤٦٥ ق.م. بعد وفاة والده اكسرسيس فرصة سانحة لقيام ثورة فى الدلتا تحت قيادة اناروس- وهو أمير محلى يعتقد أنه من السلالة الملكية لأسرة سايس. وقد نجحت الثورة فى البداية نجاحا ملحوظا، وسيطرت على معظم الدلتا. وبعد ذلك هبطت عليهم مساعدة لم تكن منتظرة فى صورة أسطول ضخم أرسلته اليهم أثينا. تمكن الثوار

بمساعدته من احتلال معظم إقليم منف. ومع كل ذلك، لم يتمكن الثوار من احتلال القلعة الداخلية التى فر إليها الفرس وتحصنوا بها. وظل المصريون- بمساعدة الإغريق- مسيطرين على الدلتا لفترة من الوقت، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوقوف فى وجه الهجوم المضاد المنظم الذى شنه عليهم الفرس بقيادة ميجابيكسوس.

وفى سنة ٤٥٤ ق.م. تم القضاء على الثورة وسيق أناروس أسيرا إلى فارس حيث تم إعدامه، وأصبح اليونانيون أنفسهم على وشك الاندحار. لكن الثورة لم تنطفئ تماما، بل استمرت المقاومة للغزو الفارسى فى الركن الشمالى من الدلتا على يدى أمير يسمى أميرتيوس، لم يحفظ التاريخ للأسف شيئا عن أفعاله، وفى النهاية سحقت محاولته هى الأخرى. ويحدد مانيتون انتهاء عصر الأسرة السابعة والعشرين بوفاة الملك دارا الثانى سنة ٤٠٥ ق.م. إلا أن هناك وثائق وجدت فى فيلة من عهد خليفة ارتاكسركسيس الثانى.

وتحتوى الأسرة الثامنة والعشرين على اسم واحد فقط هو الملك أميرتيوس، الذى ربما كان حفيدا للأمير الثائر أميرتيوس. والمعلومات عن هذا الملك قليلة، فيما عدا أنه قد أفلح فى طرد الفرس من مصر وتمكن فى السنة الخامسة من حكمه (٤٠٠ق.م) من السيطرة على فيلة فى جنوب مصر. وبوفاته انقضى عهد الأسرة الثامنة والعشرين.

وملوك الأسرة التاسعة والعشرين من مندس بالدلتا. وقد انقضى عهد هذه الأسرة والأسرة الثلاثين التالية لها، فى محاولات متكررة للحيلولة دون تمكين الفرس من تثبيت وضع مصر كولاية فارسية. ومرة أخرى يعتمد المصريون فى كفاحهم هذا على معاونة الإغريق لهم. وقد وقع الملك نفريتس (٣٩٨-٣٩٣ ق.م) معاهدة مع أسبرطة إلا أنها كانت قليلة الأثر. أما الملك أخوريس - من ملوك نفس الأسرة - فقد استخدم أحد القواد من المرتزقة الأثينيين ويدعى خابربوس،

ولكن سرعان ما استدعت أثينا هذا القائد على أثر شكوى من الحاكم الفارسى فارنا بازوس.

وفى سنة ٣٧٣ ق.م. شن القائد الفارسى فارنا بازوس هجوما كبيرا ضد الملك المصرى نختانيو الأول أول ملوك الأسرة الثلاثين- وأصلها من سبينتوس بالدلتا- ولكن هذا الهجوم فشل بسبب المقاومة غير المتوقعة من جانب المصريين حتى أتى فيضان النيل.

ثم ما لبث أن حدثت ثورة فى الولايات داخل الامبراطورية الفارسية حولت إهتمام الفرس بعيدا عن الجبهة المصرية لفترة من الوقت.

وفى سنة ٣٦٠ ق.م. أحس تاوس خليفة نختانيو الأول فى نفسه القوة فهاجم الفرس فى فينيقيا، وأرسل طالبا العون من اسبرطة وأثينا، إلا أن الحملة انتهت بمهزلة أدت إلى الإطاحة بتاوس ليحل محله نختانيو الثانى - أحد أقربائه حديثى السن. وكان هذا الأخير مثل سمته نختانبو الأول من رعاة الفنون.

هذا الملك له تابوت ضخم فى رواق التماثيل المصرية بالمتحف البريطانى (نموذج رقم ١٠).

فى هذه الفترة كان ملك فارس هو ارتا كسرسيس أوخوس الذى صمم على إعادة ضم مصر إلى الامبراطورية الفارسية. وبعد مناوشات بسيطة شن الفرس هجومهم الحاسم سنة ٣٤٣ ق.م. على مصر، فما كان من خنتانبو الثانى إلا أن فر إلى النوبة. وبذلك عادت مصر ولاية فارسية حتى سنة ٣٣٢ ق.م. ويعتبر بعض المؤرخين القدامى ملوك الفرس فى هذه الفترة هم ملوك الأسرة الحادية والثلاثين.

وأخيرا، قضى على حكم الفرس لمصر نهائيا عندما قدم إليها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م. واستقبل من المصريين - على الرغم من كونه أجنبيا-

استقبال الفاتحين بصفته محرر مصر من الغزو الفارسى. ولم يمكث الاسكندر بمصر طويلا. ولكى يتقبل المصريون حكمه لجأ إلى الوسائل السياسية، فقدم الأضحيات للآلهة بمنف، وزار معبد آمون بواحة سيوة. وقد اعتبر المصريون الاسكندر واحدا من الفراعنة، وقام هو من جانبه باقرارهم على الأوضاع الإدارية بالبلاد وقبل مغادرته مصر أسس مدينة الاسكندرية التى سوف تصبح فى عهد أخلافه عاصمة مصر الرسمية.

العصر البطلمى

(٣٣٢ - ٣٠ ق.م.)

بعد غزو الاسكندر الأكبر لمصر، أصبحت مقاطعة تابعة للامبراطورية المقدونية الجديدة. وفى سنة ٣٢٣ ق.م. مات الاسكندر فجأة، وبعد فترة قصيرة من موته أرسل فيليب أريديوس بطليموس لاجوس لحكم مصر. وما لبثت الامبراطورية المقدونية أن تحللت بسرعة فى السنوات اللاحقة لموت الاسكندر. فبدأ بطلميوس بخطى وئيدة ينحو نحو الاستقلال بمصر، حتى أفلح سنة ٣٠٥ق.م. فى تتويج نفسه ملكا على مصر وأضاف إلى اسمه لقب سوتر- أى المخلص- وبذلك تأسست الأسرة البطلمية.

وقد انتقلت مصر فى عهد البطالمة إلى مرحلة حضارية جديدة ازدهرت فيها أحوال البلاد. وأعيد تنظيم مصر إدريا على أسس إغريقية، وأصبحت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية. وفى مجال الفنون أدخلت أفكار جديدة مجلوبة من العالم الهيلينى، أثرت بشكل ملحوظ على الأنماط العتيقة والتقاليد الفنية الموروثة. وفى المجال العسكرى أعيد تنظيم الجيش على الأسس المقدونية، وأصبح أداة قتالية فعالة. ولم يحاول البطالمة إثارة الشكوك حول مناهجهم الدينية، رغم دخول آلهة أجنبية كثيرة إلى مصر فى عهدهم - بعضها اغريقية وبعضها آسيوية. فقد

استمروا فى رعاية مجمع الآلهة المصرية الرئيسية باستمرار. وأقاموا كثيرا من المعابد الضخمة .

وفى النقوش البارزة التى حفروها على جدران هذه المعابد، حرص ملوك البطالمة على الظهور بمظهر الفراعنة القدماء - وهناك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن ذلك كان هدفهم بالفعل. ولم يكتفوا بذلك بل اقتبسوا ألقابا ملكية مصرية وسجلوا أسماءهم داخل خراطيش.

ومع كل ذلك كانت اتجاهاتهم مختلفة، فاهتموا إهتماما كبيرا بالتجارة، وأسسوا الموانى الجديدة، وقاموا بتنمية العلاقات مع آسيا وغيرها من البلاد التقليدية. وكان البطالمة من رعاة الثقافة والعلوم، ومن أهم آثارهم في هذا المجال مكتبة الاسكندرية العظيمة التى أسسها بطلميوس الأول. ومن خلفائه المستنيرين بطلميوس الخامس ابيفانيس، الذى رعى وتعهد المعابد المحلية - وإليه ينسب المرسوم المنقوش على حجر رشيد (نموذج ٢٤ بالمتحف البريطانى).

ولكن العصر البطلمى لم يستمر على هذه الدرجة من الحيوية والاستنارة، ففى أوائل القرن الأول قبل الميلاد فقدوا امبراطوريتهم الآسيوية وبدأت سيطرتهم الداخلية فى التراخى. وزادت حدة المنازعات من زعزعة استقرار النظام. ولم تترك لهم أطماع الرومان فرصة لإعادة الاستقرار.

وفى عهد بطلميوس الثانى عشر أوليتس (٨٠-٥١ ق.م.) أصبح التدخل الرومانى فى شئون مصر حقيقة واقعة، بعدها أصبح ملك مصر لا يزيد إلا قليلا عن أحد رعايا روما.

وانتهى العصر البطلمى بصفة نهائية سنة ٣٠ ق.م. بوفاة كليوباترا السابعة، ثم ابنها قيصرون، لتصبح مصر مقاطعة رومانية.

أشهر ملوك مصر الفرعونية

حتشبسوت

زعيمة النبيلات (١)

«تذكرى أن دماثة الأخلاق هى التى ستجعل الناس يحبونك. انهضى لوالديك وأولئك الذين هم أرفع منك مرتبة» هكذا كانت تكتب فى مثابرة مرة بعد مرة تلك الفتاة الصغيرة ذات البشرة الخمرية، اللطيفة، والأنف المعقوف قليلا، والذقن المستدير الذى ينم عن صلابة.

لم تكن تكتب ذلك على صفحة كراسة بقلم ومداد، ولكن على قرطاس من البردى وفى يدها بعض أعواد سويت أطرافها من نوع من أنواع البوص. أما الكتابة التى كانت تكتبها فلم تكن إلا الكتابة الهيراطيقية التى استخدمها المصريون القدماء، ولم تكن الفتاة الا وريثة عهد الفراعنة، والمكان هو القصر الملكى فى طيبة، أما الزمان فهو أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الآن.

ازدهرت تلك المملكة العظيمة التى أنشأها بناة الأهرام وهى التى تسميها «الدولة القديمة» والتى كانت عاصمتها فى منف بالقرب من القاهرة، العاصمة الحديثة لمصر. ولكن الحروب والثورات أدت إلى زوالها منذ عهد بيد. وتلتها الدولة الوسطى، ولكنها تحطمت بدورها على أيدى المغيرين الأجانب القادمين من آسيا والذين سماهم المصريون الهكسوس. وأسماهم البعض ملوك الرعاة، وبعد مائتى عام من حكمهم البغيض طردهم الأمير الطيبى المحارب، «أحمس الأول» مؤسس الأسرة الفرعونية الجديدة المعروفة باسم الأسرة الثامنة عشرة، ووحد البلاد مرة أخرى ووضع فوق رأسه التاج التقليدى الذى يزدان بكل من العقاب

(١) كانت ملكة على مصر ونفرد هلومز - ترجمة سعد أحمد حسين.

والحية رمز القطرين، الوجه القبلى والوجه البحرى، وأصبحت طيبة، التى نعرفها اليوم باسم الأقصر، عاصمة للبلاد. هكذا بدأت الدولة الحديثة، وكان أحمس الأول هو الجد الأكبر للأميرة حتشبسوت.

أما جدها أمنحوتب الأول، ثانى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، فقد أكمل أعمال أحمس وذلك بإعادة تنظيم البلاد التى انتشر فيها الخراب، وتهدئتها وتقويتها، وبتركيز القوة فى يديه بالعمل على تقوية الجيش. لقد ذهب الهكسوس مخلفين وراءهم ذكرى لا تنسى من الكراهية والمرارة، ولكنهم أيضا تركوا لمصر شيئا يشكرون عليه وهو معرفة الحصان وهو حيوان لم يكن معروفا للمصريين حتى وقت مجيئهم.

وتلاه الفرعون تحوتمس الأول، والد حتشبسوت، الذي استطاع بما كان فيه من أحسن الجياد فى العالم المشدودة إلى عربات حربية خفيفة، وبما لديه من رماة السهام المشهورين من أبناء وادى النيل، استطاع أن يشن الحرب على أعداء مصر فى عقر دارهم وأن يطاردهم شمالا وشرقا حتى ضفاف الفرات، مدعيا ملكية الأقطار التى أخضعها.

وحوالى نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد، عندما كانت حتشبسوت تعيد كتابة القول المأثور الذى يأمرها بأن تنهض لمن هم أرفع منها فى المكانة كانت مصر قد بدأت أزهى عصورها كامبراطورية، وكانت حتشبسوت، وهى تجلس القرفصاء على حصيرتها المصنوعة من نبات الحلفا، لتكتب وهى جالسة فوق الأرض، هى الأميرة الملكية «سيدة الأرضين وارثة عرش طيبة».

وفى الواقع كان هناك شخصان فقط أرفع منها منزلة : أمها الملكة أحمس ، الزوجة الملكية العظمى، ووالدها تحوتمس الأول الفرعون الحاكم، ومع ذلك فكان لابد لها من أن تثابر على نقل وتعلم الحكم المأثورة عن الحكماء

المصريين القدماء، كأى فرد من زملائها، مثل أخيها غير الشقيق تحوتمس الأول والأمراء والأميرات الصغار.

كان بعضهم من أبناء الملوك والملكات الأجانب الذين وقعوا فى أسر أبيها فى غزواته الخارجية، وعدد قليل من أبناء الوزراء والأسرة النبيلة الذين كانوا من أصحاب الحظوة لدى الملك، وما من شك فى أنها كانت تخشى المعلم الذى كان يلقنها الدروس وتخشى أساليبه العتيقة مع تلاميذه مهما كانت منزلتهم، إذ كان المعلمون الصارمون يعتقدون «أن أذنى الطفل إنما توجدان فوق ظهره لا يسمع إلا عندما يضرب».

ولكن المثل الأعلى للعدالة الذى كان يطبق على الجميع بالتساوى بدون خوف أو محاباة، قد أصبح جزءا أساسيا فى حياة المجتمع المصرى ولم يكن فى استطاعة حتشبسوت أن تطالب بأية امتيازات خاصة فى معاملتها، وعلى هذا كان يتحتم على الأميرة حتشبسوت - ومعنى اسمها «زعيمة النبيلات» - أن تضبط مشاعرها الحادة المستبدة وأن تعامل غيرها بأدب، وأن تقبل على تعلم علوم الأخلاق والسلوك الصحيح، بالإضافة إلى القراءة والكتابة والحساب والفلسفة والطقوس الدينية وقواعد اللغة والإنشاء.

ولكن عندما كان يحين وقت الظهر وتنتهى الدراسة فانها كانت، على الأرجح، من أوائل الذين يلقون بالقلم، وتقوم من الأرض لكى تمشى قليلا. وفى هذا الوقت تكون الشمس فى كبد السماء الزرقاء الصافية - وشمس الوجه القبلى شديدة الحرارة فى الواقع - بالرغم من أنها وغيرها كن يلبسن أرق الأقشمة الخفيفة التى كانت من نسيج الكتان الفاخرة المصنوعة باليد، وكانت تجمع أطرافها وتطوى عند الخصر، وبالرغم من أن حلقات الدروس كانت تعقد فى بهو أعمدة مكشوف يواجه الجهة الشمالية الباردة، فان الجو فى تلك اللحظة يكون قد اشتد قيظه إلى حد لا يسمح بالدرس وتركيز الذهن. ولهذا السبب

كانت المدرسة الملكية فى بيت فرعون كغيرها من مدارس البلاد تبدأ فى وقت مبكر فى الصباح وتنتهى عند الظهيرة كما تفعل الكثير من مدارس مصر فى الوقت الحاضر

فإذا ما انتهى اليوم المدرسى، وذهب المعلم القاسى المتقدم فى السن، أصبحت حتشبسوت مرة أخرى وارثة للعرش فإذا ما أحست بالظمأ، كانت هناك جارية لتحضر لها جرعة ماء فى الإناء الفخارى الطويل الذى كان موضوعا ليبرد عندما يمر عليه النسيم، وعندما كانت ترغب فى غسل يديها قبل وجبة الغداء كانت هناك جارية أخرى تقوم على خدمتها عند مكان الغسيل المرتفع فى الغرفة، وتصب الماء المعطر على يديها

فإذا ما حان وقت الطعام كانت تذهب مع أخيها غير الشقيق تحوتمس، وكان شخصا واهنا ضعيف البنية إذا قارناه بحتشبسوت ذات العقل المتأجج والبنية القوية ليأكلا مع والديهما .

وفى المناسبات الرسمية كان الملك وأسرته وضيوفه يجلسون على كراسى مذهبة مزخرفة ويقوم الخدم بتقديم الطعام لهم.

ولكن عندما كانت الأسرة المالكة تتناول طعامها فى الجناح الخاص فانهم كانوا يجلسون دون كلفة فوق أرائك غير مرتفعة، تنحنى أمامهم خادمات صغيرات السن يقدمن لهم الطعام المكدس فى صحاف ممتلئة يأتون بها من المطبخ وهى ساخنة.

وكانوا يأكلون بشهية، وكان الطعام مكونا من قطع لحم البقر ولحم العجل الطرى وطيور الماء المشوية، ومن البط والأوز التى كانوا يأتون بها من مستنقعات البردى القريبة من شاطئ النهر. ومن أسماك النيل والأرغفة المستديرة الطازجة والفطائر المصنوعة من دقيق القمح والشعير والبلح، ومن

العسل والجبن وينهون وجبتهم بكميات كبيرة من الفاكهة الطازجة اللذيذة الطعم، مثل التين والكنب والقثاء والبلح وتزينها زهور وأوراق وسيقان اللوتس الزرقاء ذات الرائحة الذكية. أما شرابهم فكان من النبيذ أو الجعة (البيرة) المبردة فى أوانى الفخار، وإذا حدث أن أحست ملكة أو أمير بنشوة الشراب كما كان يحدث للرجال فانهم لم يروا فى ذلك أمرا مستهجنا.

وعند نهاية الطعام كانوا يتعطرون بعطر زيتى يغرفونه من أوانيه بملاعق طويلة محفورة حفرا جميلا. وفى الولائم كانت السيدات والفتيات يصففن شعورهن بحيث يجعلن فى أعلى الرأس مكانا لوضع العطر الذى يضعه الخدم فوق شعورهن، وكن يلبسن حول رقابهن عقودا من زهور اللوتس الزرقاء التى كن يفضلنها لجمالها وطيب رائحتها.

لقد عرفنا كل هذه التفاصيل الدقيقة وغيرها من الصور والنقوش البارزة التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر. فقد كان هؤلاء الناس الذين عاشوا قبلنا بزمن طويل يحبون الحياة، وتمتعوا بحياتهم إلى درجة كبيرة، وظنوا أنهم بتكليفهم للفنانين ومهرة الصناع بتصوير تلك الحياة بصدق وبهجة على جدران مقابرهم يستطيعون أن يحصلوا عليها مرة ثانية فى العالم الآخر. وفوق ذلك فان الرمال الجافة ومناخ مصر الحار غير الممطر قد حفظ لنا برديات لا يحصيها العد، وهى مؤلفات كتبها علماء مصحوبة برسوم، وتتناول الشعر، وبعض صفحات من التاريخ، ومؤلفات فى القانون، والطب، ونظام الحكومة، والزراعة، وكتب عن الديانة والسحر، وقصص الحياة الشخصية لبعض الناس، وبذلك استطاع العلماء فى عصرنا الحديث بما امتازوا به من الصبر أن يكشفوا لنا عن أسرارهم.

ومع أن القصر الملكى فى طيبة لم يعد له وجود إذ هدمه فى القرن السابع قبل الميلاد الملك الآشورى آشوربانيبال عندما غزا مصر فإننا نستطيع بفضل

هذه السجلات الرائعة أن نرى صورة ما حدث تقريبا فى ذلك يوم من أيام الصيف القائظة فى ذلك الزمان البعيد.

ففى داخل القصر نجد البهو الملكى المظلم الرطب بأرضياته وجدرانه الملونة بالنقوش الزاهية وأعمدته المزخرفة، بينما كان الفرعون تحوتمس الأول ذلك المحارب العظيم وأحد مؤسسى الامبراطورية، وكان قصير القامة مملتىء الجسم، وكان أصلع الرأس متوسط العمر، قد أخذ هو وزوجته وابنه وابنته فترة استجمام، وقد ارتدى الأربعة ملابس بيضاء يأكلون ويضحكون ويتحدثون .. وكانت خادمات القصر الصغيرات يرتدين ملابس بيضاء ولكنها أقل حجما وأكثر شفافية.

وكان رئيس الخدم يراقبهن بحرص ليقدم المزيد من الطعام، وكان رئيس الطهاة يحوم على مقربة من الباب مؤملا تقدير ما بذل من جهد.

وفى الصباح ، خلف الحدائق والأسوار المحيطة بالقصر، كانت تقوم مدينة طيبة عاصمة القطرين أى مصر العليا ومصر السفلى وقد بنيت مساكنها بالطوب اللبن، وكانت المساكن -كما هى اليوم- وبداخلها صوامع الغلال المخروطية الشكل، ذات سطوح مستوية يجفف الناس عليها ملابسهم نهارا وينامون عليها فى ليالى الصيف.

وكانت مساكن رجال البلاط والقواد وأسر النبلاء، تحاط مثل القصر بأسوار مستطيلة عالية، وفى داخلها الحدائق. وفيها تنمو الأشجار الظليلة والنباتات المزهرة، وكان لكل حديقة بركة تنبت فيها أزهار اللوتس ينتعشون بمياهها الزاخرة بالأسماك التى تمنع توالد البعوض.

وقد عرفنا من حياة حتشبسوت فيما بعد أنها كانت تحب الزهور والحدائق والأشجار وكل شىء ذى أريج زاهى الألوان، ولكنها كانت طفلة فى

ذلك الوقت ومن المحتمل أنها كانت تنهر بستانيي القصر بشدة وتأمر بجلدهم عندما يهملون ملء بركة أزهار اللوتس فى أيام انخفاض النيل أو عندما ينسون رى النباتات، فلاشك فى أن حتشبسوت كانت طفلة محبة لاظهار سلطتها.

وخلف المساكن والضياع الكثيرة كان يقوم معبد آمون اله مدينة طيبة الذى كان على هيئة الكبش، وكانت تجرى فيه بعض عمليات البناء، وكان يقف بالمدخل جمع من أهالى طيبة وهم ينظرون فى دهشة إلى جنوع الأشجار الكبيرة، وهى أشجار ضخمة لا ينمو مثلها فى مصر، ينظرون إليها وهى تنقل من السفن إلى الشاطئ يدحرجونها فوق «ورافيل» إلى حيث كان نحاتو الأحجار يعملون فى كتل من الحجر الجيرى الناصعة البياض، وكان يمنع أولئك الناس من الاقتراب حراس متكئون على حرابهم يراقبون فى بلادة الأرقاء وهم يكدون فى الجر بالحبال. وكانت الأرض كلها ملكا لفرعون، وعلى كل فرد أن يقوم بنصيبه من العمل فى المبانى العامة سواء فى المعابد والقبور التى يشيدها ويجملها «جلالته»، أو فى مشروعات الرى وإقامة السدود.

ومن أقدم ذكريات حتشبسوت، ما أحست به لأول مرة نحو سر معبد آمون وقدس الأقداس الداخلى الذى كان يسمى «بيت اللهب» حيث يظهر الاله ذو الرأس التى على هيئة الكبش، ومن بين الظلام يتقبل، دون أن يتحرك، قرابين الطعام والزهور والبخور التى يقدمها أبوها والكهنة.

وفى أيام الدولة القديمة عندما كانت عاصمة مصر فى منف على بعد مئات الأميال نحو الشمال، وفى أيام الدولة الوسطى، عندما كان لكل أسرة اقطاعية حاكمة إلهها الخاص بها، كان آمون إلها محليا فقط، إلها محليا معبودا فى مدينة لا أهمية لها من مدن الوجه القبلى. ولكن طيبة قد أصبحت الآن مدينة هامة، وأصبحت مقرا للحكومة فى الدولة الحديثة وعاصمة امبراطورية مترامية الأطراف، وأصبح الهها آمون الها مهما أيضا، وكان الناس ينظرون إليه

باعتباره واسطة تصل دعوات الناس وابتهالاتهم إلى الآلهة الأخرى عن طريقه، وكانوا يطلقون عليه لقب « ملك الآلهة».

وعدد الآلهة والآلهات التى ترسم ولها رءوس على هيئة رءوس الحيوانات فى مصر القديمة كبير جدا، وسبب ذلك أنه فى عصور ما قبل التاريخ كان لكل منطقة قبلية حيوانها الطوطمى، فكانت بويسطة فى دلتا النيل تتخذ القط، وفى منف كان الثور، وفى الفيوم التمساح، وفى غيرها كان العقاب والبقرة وابن آوى والأسد والحية وطير الأيبس، ... الخ.

وعندما تطورت الديانة أصبحت هذه الطواطم معبودات، آلهة وآلهات يحمى كل منها المدينة وما حولها، مثل آمون إله طيبة، وانضوت كل هذه الطواطم القديمة تحت سيادة آلهة مصر العظام مثل رع إله الشمس وأوزيريس إله النيل والعالم الأسفل وايزيس أخته وزوجه.

ولكن الطواطم التى على صورة الحيوانات ظلت محتفظة بكل مميزاتها الخاصة. فكانت حتحور البقرة، والتى كانت مقدسة للحب والجمال، تمثل إما على شكل بقرة وإما على هيئة امرأة ذات وجه عريض ولها جدائل شعر ملتوية على شكل القرنين، وأذنان كأذنى البقرة. وأصبح الصقر الذى كان يمثل أحيانا فى صورة نصفها طائر ونصفها إنسان رمزا للآله حورس ابن أوزيريس،

وكان الآله ذو الرأس التى على هيئة ابن آوى رمزا لأنوبيس إله الموتى، والعجل أبيس إله الزراعة، وطائر الأيبس ذو المنقار الطويل رمزا للآله تحوت الرسول السماوى وإله الكتابة والرياضيات والطب والسحر، وقد سمى والد حتشبسوت باسم تحوتمس أى « تحوت قد ولد» نسبة إليه.

وكانت حتشبسوت تتابع انتصارات أبيها تحوتمس فى النوبة وسورية وبلاد ما بين النهرين بالاعجاب والفخر وأحست وقتئذ أنه كان يجدر به أن يحيى ذكرى تلك الانتصارات بتوسيع وتجميل معبد آمون.

ويمكننا أن نتخيل فرعون بعد أن تناول وجبة الغداء وقد استدعى أنينى مهندسه الأول ليعرف منه على وجه الدقة كيف كانت تسير عمليات البناء والوقت الذى سننتهى فيه هذه العمليات، ولاشك أن حتشبسوت قد استمعت إلى ذلك بإهتمام، وأحست بالحسرة لأنها لم تكن إلا فتاة، إذ لو كانت صبيا لتيسرت لها الفرصة فيما بعد لتبنى معابد ضخمة وتترك آثارا خالدة لتمجيد الآلهة وتمجيد مصر. إنها لن تشيد أهراما، لقد بنى الأجداد أهرامهم ليؤكدوا ألوهيتهم الأبدية، ولكن بالرغم من كل المداخل الخفية والممرات السرية وغرف الدفن الوهمية التى ابتكرها مهندسوهم وبنوها لهم، فإنهم لم يستطيعوا منع لصوص المقابر من شق طريقهم إلى أسرارهم الخفية والاعتداء على مومياتهم الملكية للحصول على ما كان معها من أشياء ذهبية. لقد انتهت أيام تشييد الأهرام وأصبح الفراعنة يعتزون الآن، بتشييد معابد للآلهة تحمل أسماءهم.

وكان تحوتمس وكبير مهندسيه انينى يناقشان موضوع البوابتين الجديدتين اللتين تقرر تشييدهما أمام المعبد ليكون مدخل المعبد أعظم روعة، وسيكون للبوابة برجان عاليان، بيلون تنقش عليهانتصارات تحوتمس بالنقوش والكتابات. وسينقش على هذه المبانى إسمه الملكى وشعاره باللغة الهيروغليفية داخل خانات (ونحن نطلق على هذه الخانات الملكية إسم خرطوش).

وسوف يكون هناك بهو مسقوف يربط بين البوابة الخارجية والداخل، ويرتفع سقفه فوق أعمدة ضخمة من أشجار الأرز التى جلبوها من لبنان - إحدى المناطق التى أصبحت تابعة لمصر منذ عهد قريب. وكان فى استطاعة أنينى أن يخبر صاحب الجلالة أن جذوع الأشجار الضخمة كانت فى تلك الآونة ترفع من السفن التى حملتها فوق مياه النيل آتية بها من عرض البحر، وأن أمهر حفارى الخشب وغيرهم من مهرة الصناع فى البلاد قد استعدوا فى موقع البناء، وهم على استعداد يبدءوا العمل فى الحال.

وأظهر تحوتمس رضاءه، ولكن كانت لديه وقتئذ فكرة جديدة ليناقشها مع أنيني. فلكي يزيد جمال المعبد إلى أبعد حد كانت لديه الرغبة في إقامة مسلتين من الجرانيت تنتهي كل منهما برأس مثلثة مذهبة تتجمع عندها أشعة الشمس، وعلى هاتين المسلتين سوف يدون إلى الأبد كأحد الفراعنة اسمه وأعماله العظيمة. وحنى أنيني رأسه بوقار، فان رغبات جلالته يكفى أن تذكر فقط.. وكل ما يستطيعه خادمه المتواضع هو أن يرجو أن يعطى فسحة من الوقت ليكمل البوابات وأبهاء الأعمدة ....

وعندما أخذ النوم يداعب جفنى حتشبسوت بعد الطعام، شرد ذهنها بين الرجلين. وفى داخل القصر كان الضوء خافتا والمكان قليل الحرارة نسبياً. أما فى الخارج فكانت الشمس فى عنفوانها وهى فى كبد السماء الصافية، وكانت الحرارة تعم وتذيب كل شيء وتحيله إلى صورة واضحة المعالم.

وعندما تطلعت إلى النيل العظيم كان من العسير عليها أن تفرق بين المياه البطيئة الجريان الخضراء اللون وبين الأرض اللهم إلا أن المياه تبدو مرقطة ببقع بيضاء وهى القلوع التى تدفع بالسفن وهى تمضى مصعدة فى النهر مستعينة بالرياح التى تهب من الشمال.

أما عندما كانت تلك السفن تتجه نحو الشمال فإنها كانت تعتمد على التجديف، إذ كانت لها مجاديف على الجانبين، وكان لها مجداف كبير لتوجيهها نحو اليمين أو اليسار وكانت مقدماتها ومؤخراتها مرتفعة وتتجه نحو الداخل، شبيهة بسنابل القمح المحرومة وقد انحنت رءوسها عند هبوب الريح.

وكانت هناك معدية تنقل الفلاحين عبر النهر إلى القرى والمزارع على الشاطئ المقابل الذى كان على وشك أن يغمر بمياه الفيضان عندما يرتفع النهر بعد أسابيع قليلة، وعندئذ يختفى ذلك الشريط الضيق من الأرض الخصبة الخضراء وتحل مكانه صحراء دهناء اللون لها قمم صخرية خشنة قاحلة لا

نزع فيها ولا حياة، وتختلط أغانى البحارة وهمهمة الكلام والضحك بصراخ الحدأة وهى تحوم فى السماء. كان قدماء المصريين قوما مرحين بالرغم من أن حياتهم كانت ملكا لفرعون وكانت حريتهم محدودة كما نعرف تمام المعرفة.

ولم تعد حتشبسوت تسمع بعد الغداء هذه الأصوات البعيدة. وانتهى الحديث الذى كان يدور بالداخل أيضا. وانصرف أنينى إلى بيته القريب ونسج الصمت خيوطه على كل القصر فى ساعة القيلولة حتى أصبح شبيها بقصر أسطورة الأميرة المسحورة، حتى البواب، فقد غلبه النعاس فى حجرته. والحراس ؟ حسنا، فليس هناك من بينهم من ظل يقظا فيرى أو يروى. إن هذا هو الوقت الذى تدير فيه الشمس رءوس القوم وتضطرهم إلى النوم فينطفىء نشاطهم كما ينطفىء النور.

وبينما كانت تنام فى الحجرات الداخلية فى القصر، ورأسها مستلقية فى راحة على مسند رأسها الخشبى المحفور فى ذلك الوقت الشديد الحرارة، فهل كانت هذه الفتاة الملكية تحلم بما تتمنى أن تحققه من القوة والعظمة (التى كانت تنتظرها) وذلك المجد الذى لا مثيل له عندما تتوج وينادى بها ... هى ... المرأة فرعون على مصر؟

أم أنها كانت تحلم بأشياء صبيانية... بقلادة جديدة من الأحجار الملونة المقطوعة على شكل أوراق الزهور ؟ أو بسوار من الذهب النوبى كهدية من هدايا العام الجديد؟ أو بالتغلب على تحوتمس الصغير فى لعبة الداما أو على والدها فى لعبة من ألعاب الزد ؟... أم أنها كانت تحلم بالحب؟

اننا نستطيع أن نخمن وأن يستولى علينا العجب، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نفعله ما دمنا لم نحصل على يومياتها أو كتاب معترف به عنها ليرشدنا إلى الحل الصحيح. ولكن الحلم بالوقوع فى الحب لم يكن إلا كرؤية

السراب، فقد كان حظها فى الزواج مرتبطا بالمولد والتقاليد وليس لديها حق الاختيار. كان عليها أن تتزوج من تحوتمس، أخيها من أبيها، تلك الشخصية الواهنة الرقيقة إذا قورنت بشخصيتها النشيطة.

ان زواج الأخ من أخته وغير ذلك من صلات القرابة الضيقة، عند الفراعنة، أصبحت أمورا تبدو أمامنا الآن بعيدة غامضة، ومع ذلك فلها تفسير بسيط. كانت النساء فى مصر هن أصحاب الحق فى الملكية وكانت الوراثة تنتقل بينهن، وحتى الملك يصبح فرعون حاكما عن طريق زواجه بالوراثة للعرش.

كانت أم حتشبسوت الملكة أحمس من السلالة الملكية القديمة التى كانوا يعتقدون أنها من نسل الشمس ذاتها. وقد استطاع تحوتمس الأول، وكانت أمه من عامة الشعب، أن يخلف أباه أمنحوتب الأول على العرش بصفة شرعية عن طريق زواجه بالملكة أحمس. وقد أصبحت حتشبسوت ابنتهما الثانية هى الوارثة للعرش عندما ماتت أختها الكبرى الأميرة الصغيرة « خبينت – نفرو»، ولم يكن لهما ابن ذكر ليتولى العرش.

على هذا سوف يئول تاج الفراعنة المزدوج إلى تحوتمس أخى حتشبسوت من أبيها إذ كان ابنا لتحوتمس الأول من إحدى الزوجات الثانويات، وكان يتحتم عليه قبل أن يضع التاج على رأسه وينادى به الشعب فرعون لهم، أن يتزوج من حتشبسوت الوارثة الشرعية للعرش.

وعلى هذا فإنه – بالنسبة لها وله– لم تكن هناك فرصة أخرى للاختيار. فهل كانا يدركان ذلك؟ من يدرى ؟ فلم يصل إلينا أى دليل نعرف منه حقيقة احساسهما نحو بعضهما البعض. كان زواجهما وقتئذ فى طى المستقبل البعيد إذ لم يكونا غير طفلين فى ذلك الوقت يحلمان فى مثل تلك الساعات القائظة من الظهيرة فى القصر النائم فى ذلك الزمان السحيق.

والأطفال هم دائما أول من يستيقظ بعد نومة القيلولة . وهذا ما كان حادثا فى القصر الفرعونى بمدينة طيبة كان لحتشبسوت رفيقات لعب كثيرات، ونظرا لما كان فيها من نشاط وحيوية فمن المؤكد أنها كانت تتمتع باللعب معهن سواء فى قاعات القصر أو فى الخارج فى الحديقة. وكان هناك فى بركة اللوتس سمك يداعبنه بأعواد من القش وربما كانت هناك ضفادع أيضا.

وكان بعض الملوك يحتفظون فى برك حدائقهم بحيوانات أكثر غرابة، فقد أرسل آخر ملك من ملوك الهكسوس شكوى إلى أمير طيبة يقول فيها أن الصوت الذى تحدثه أفراس النهر الموجودة فى بركة قصره يضايقه وعليه أن يسكتها والا وقد دخلت أفراس النهر هذه فى التاريخ، لأن شكوى الملك الهكسوسى والاستحالة الواضحة فى إمكان المحافظة على هدوء أفراس النهر، كانت القشة التى قصمت ظهر البعير، وأصبحت الشرارة التى ألهبت الثورة المصرية وأدت إلى انتصارات جد حتشبسوت العظيم على هؤلاء الأجانب البغيضين الذين كانوا يعيشون فى مصر

وربما كانت هناك حية لامعة الجلد قد شربت من الماء ثم انسلت بعيدا، فقد كانت الحية مخلوقا مقدسا، وكانوا يعبدونها وكان والد حتشبسوت يحمل حية مرصعة بالأحجار الكريمة كجزء من التاج الفرعونى - «الأوريوس» - المعروفة باسم « سيد الحياة»، وهى حية ذات درقة منتشرة وكانت على استعداد لتهجم وتقتل أعداءه، وفى الاستطاعة أن تحمل حية مرصعة فى تاجك، ولكنه من الحكمة مع ذلك أن تبتعد عن الحية التى تراها فى الحديقة، فقد تغضب الآلهة الحامية على بعض أتباعها أحيانا.

وكان من الممكن زيارة الاصطبلات الملكية عندما تقل بهجة الحديقة وفى ذلك اليوم كان ملاحظ الجياد قد أبلغ أن احدى الأفراس على وشك أن تضع مُهرا، وربما يكون المهر قد تمت ولادته فعلا فقررت حتشبسوت أن تذهب لترى

ما هناك، لأنها كانت تحب الجياد المتوقدة نشاطا، المجلوبة من آسيا.

وكانت تستمتع بالركوب فى العربات الصغيرة ذات العجلتين التى تجرها تلك الجيا، وهى تسرع قدما وقد تطايرت أعرافها وذيولها فى الهواء. وتحتاج قيادة هذه العربات إلى فروسية وتوازن كبيرين إذ لابد لك من أن تقف منتصب القامة عندما تركب مثل هذه العربة وتقودها، وكانت حتشبسوت تمسك جيدا بأبيها عندما كانت تركب معه.

وكان يمكنها الاستماع إلى فرقة موسيقى القصر، وتصغى إلى الفتيات وهن يلعبن على آلات وترية ذات رقاب طويلة وهى الطنبور (أو العود) وعلى آلات الجنك (الهارب) الصغير ليصاحبن أحد المغنين. كما كان هناك العازف الأعمى الذى كان يبدو رجلا كهلا للأطفال الذين كانوا يحبون الأغانى التى يغنيها أو قصص البطولة التى يرويها لمستمعيه، ولادخال السرور على قلوبهم كان هناك أيضا راقصون من الرجال والنساء ولاعبو الأكروبات والحواة والحيوانات التى تؤدى بعض الألعاب. إن الحياة لم تكن مملة أبدا فى القصر الملكى بمدينة طيبة.

وعندما يكون لدى أبيها فسحة من أعباء الحكم فانه كان يستصحبها هى وأمها عندما يخرج إلى المستنقعات لصيد بط الماء. كانوا يذهبون فى زورق خفيف وينتقلون به فى هدوء بين سوق النباتات المائية الطويلة، مثل البوص والبردى وذلك حتى لا يضيعوا فرصة الصيد. وهناك كانت تكمن بعض الأخطار كما كانت تتيسر المتعة فأحيانا توجد التماسيح وأفراس النهر التى يمكن أن تعكر عليهم صفوهم.

كانت حتشبسوت تستمتع بمثل هذه الرحلات وما فيها من مغامرة. كانت تجلس فى الزورق وتمد يدها إلى الماء وتعبث بسيقان اللوتس وتلتقط الأزهار الزرقاء والوردية اللون لتضعها فى شعرها الفاحم ولكنها لم تكن

لتستطيع أبدا أن تشارك فى الفرحة العامة عندما يصيب سهم هدفه، ويفرفر طائر ويسقط ميتا، فقد كانت تحب الحياة والأشياء الحية ولكنها لم تكن محاربة أو صائدة مثل أبيها.

ولكن الحزن حل يوما من الأيام فى حياتها السعيدة. فقد وقعت أمها الزوجة الملكية العظمى الملكة أحمس، والتى كانت تحبها من أعماق قلبها، فريسة للمرض الذى أودى بحياتها. ووقتئذ تبدل كل شىء أمام عينى حتشبسوت وعرفت لأول مرة فقط معنى الحزن. كانت الملكة أحمس امرأة ذات روح مرحة وتتضح شخصيتها بجلاء فى الرسوم البارزة التى بقيت لنا لنراها بعد موتها بزمن طويل على جدران المعبد الرائع الذى بنته ابنتها الفرعون حتشبسوت فى الدير البحرى.

ويبدو على ملامح وجهها الجد والرقة والحزم واحساس لطيف بحب المرح، فاذا نظرنا إلى صورة ابنتها على مقربة منها يمكننا أن نقوم أن حتشبسوت قد ورثت عن أمها أنفها الأرستوقراطى وعينيها المستطيلتين وذقنها المستدير.

ولم تكن الملكة أحمس على جانب كبير من الجمال، وكانت حتشبسوت أكثر جمالا ولكنها كانت جميلة فى عينى ابنتها التى كانت تحبها. وهذه الصور المنقوشة على الحجر ملونة، ولا تزال الألوان واضحة ومحفوفة، والبسمة الحانية التى تعلو وجه الملكة تضىء الصحراء القاحلة ويتردد صداها فى الفراغ المحيط بها.

وفى واحدة منها ترى الاله تحوت وهو يقدم الملكة إلى آمون وينص نقش حتشبسوت «أن إسمها أحمس وهى أجمل من أية امرأة أخرى» والآن ها هى قد أصبحت فى عداد الموتى، وخلا القصر من بسمتها وصوتها، وضحكتها لم تعد هناك لتلجأ إليها حتشبسوت، إن ألم بها كرب، أو عند حاجتها إليها لتشركها فى سر أو دعابة.

وخلال تلك الأيام السبعين التى تحنط فيها الجثة ويقوم الكهنة بالطقوس الجنائزية إلى أن ينتهى الأمر بوضع التابوت الحجرى فى المقبرة التى نحتت فى الصخور التى على الجانب الآخر من النيل كانت حتشبسوت تلجأ على ما يظهر إلى مربية عجوز باحثة عن الراحة ولتشد من عزيمتها، وكانت هذه المربية أيضا من اللائى كن قد أحببن الملكة الوديعة أحمس.

وكانا يتخيلان معا الملكة الراحلة وهى راكبة فى مركب الشمس وهو يقوم بالرحلة فى بلاد الغرب الموحشة وفى أثناء الليل تسير نحو الأفق الشرقى. وهناك يركب الاله رع من جديد مركب النهار بينما تبقى هى لتصبح «روحا مضيئة» وكان الكهنة يرتلون عند صلاة الدفن : «قولوا لها المرح لأنها قد وصلت إلى الأفق».

وكانا يتخيلان معا أيضا أحمس وهى واقفة فى ساحة المحاكمة بين الآلهة ليوزن قلبها مقابل ريشة واحدة رمز الصدق والاستقامة، فإن كانت خطاياها كثيرة إلى الحد الذى تميل كفة الميزان فان الوحش الغريب الخلقة «عمعمت» الذى يقف إلى جوارها، والذى يبدو جزء منه على هيئة تمساح وجزء على هيئة أسد وجزء على هيئة ضبع وجزء على هيئة فرس النهر، يلتهمها فى الحال.

ولكن ابنتها ومربيتها كانتا واثقين تماما من أن قلبها كان نقيا وأنها لن تكون فى حاجة إلى الجعران الموضوع فوق صدر مومياتها، وقد نقش على جعران القلب هذه الكلمات «يا قلبى لا تكن شاهدا ضدى».

وسوف يكون قلبها أخف وزنا من الريشة التى فى الكفة الأخرى من الميزان، وسوف يسجل تحوت كاتب المحكمة ذلك على برديته، وسوف يقودونها للمثول أمام كبير القضاة أوزيريس الجالس على العرش باعتبارها روحا بريئة، وسوف يمضى الوحش عمعمت فى ذلك اليوم جائعا.

وربما كانت وفاة أحمس هى السبب فى تحول ابنتها بشكل واضح نحو الدين ابتغاء السلوى والعزاء، إذ ترى فى نقوش وكتابات حتشبسوت أنها كانت امرأة متدينة جدا وتحس بفؤادها بالقوى الكامنة وراء القوى الدنيوية التى تحيط بها احاطة تامة، ونظرا لموت أمها «الزوجة الملكية العظمى» أخذت هى مكان الصدارة باعتبارها الوارثة لعرش مصر.

ولكى يستمر أبوها فى حكمه بصفة شرعية وأن يظل الشعب راضيا، عليه أن يشركها معه فى الحكم .. ملكة تحكم إلى جانبه بمقتضى حقها. وذهبت عنها فى لمح البصر حرية طفولتها وأصبحت مرغمة على المشاركة فى حمل الأعباء والمسئوليات التى تقع على عاتق كل ملك مطلق السلطة.

كانت أعمال الدولة التى يجب أن تمر بين يدى فرعون ثقيلة ومتشعبة وكان عليه فى كل يوم أن يوقع كثيرا من أوراق الدولة، كان عليه أن يعتمد عقود تمليك وهبات للمعابد والمقابر، مقابل مايقوم به الكهنة من خدمات وقرابين، وكان عليه أيضا أن يسهر على الأشغال العامة من مبان وقنوات ومناجم، وأن يسهر على قانون البلاد، وعلى الجيش، وعلى الزراعة، وأن يقابل البعثات الأجنبية ويتلقى الجزية وأن يطلع على تقارير الحكام ورؤساء الحاميات فى الجهات البعيدة من الامبراطورية، ويجيب عنها.

وكان هناك وزيران رئيسيان يقومان بعمل كل شىء له، وكان وزير الشمال يعيش فى منف، أما وزير الجنوب فكان فى طيبة، وكان هو القوة الكبرى فى البلاد بعد سيده الملك، وكان لمنصبه أكبر نصيب من المسئولية، وكان عليه أن يقسم أمام الآلهة عند تنصيبه بألا يسىء استخدام سلطته ووظيفته الكبيرة، بل يعامل كل فرد معاملة عادلة صغيرا كان أو كبيرا فقيرا أو غنيا، وأن يتأكد من أن جميع موظفيه يسيرون على هذه السنة .

لم يكن هناك برلمان أو جمعية عمومية لتختار الوزير وتعين من يساعده، بل كان فرعون نفسه هو الذى يختارهم جميعا على أساس ما يلمسه فيهم من قوة خلق ومقدرة.

وكان وزير الجنوب يأتى إلى مكتب فرعون فى كل صباح ويقدم له تقريرا عن حالة البلاد، كان يأتى إليه ومعه عرائض لا يحصيها العد، ووثائق للبت فيها والتوقيع عليها، وكان عليه أن يرتب رحلات يقوم بها فرعون على صفحة النيل، الشريان الرئيسى فى البلاد، ليزور المدن فى الشمال وفى الجنوب ليراه شعبه ويتاكد بنفسه من أن كل شىء يسير سيرا حسنا. وكانت حتشبسوت بصفتها شريكة فى الملك تشترك فى هذه الرحلات، ونستطيع أن نقول ونحن واثقون أنها كانت مهتاجة الإحساس وتشعر بسعادة خاصة عند ترتيب إحدى تلك الرحلات.

وكان تحوتمس الأول قبل كل شىء رجلا عسكرى النشأة. لقد قاد بنفسه جيشه المكون من الرماة وراكبى العربات عندما قام بحملاته الناجحة خارج البلاد وكان رجاله يحبونه كل الحب لشجاعته، وحسن زمالته، وقيادته الملهمة وكان يهتم كحاكم للبلاد بحالة الجيش أكثر من أى شىء آخر، وكانت ابنته هى التى أظهرت النبوغ فى حكم البلاد فى السلم والإدارة الصالحة وهى السياسة التى استفادت منها البلاد فيما بعد فائدة كبرى.

وبعد انتهاء زيارة الوزير، يأتى رئيس الخزانة ليقدم تقريره اليومى عن حالة البلاد المالية. كانت الضرائب تدفع من المحاصيل نفسها وكان مقدارها فى العادة خمس المحصول إذا كان جيدا. كان جامعو الضرائب يستولون على خمس الزيت والحبوب والكتان والقمح والصوف والخضروات وجميع المحاصيل الأخرى التى ينتجها الشعب.

وكانت الحبوب تخزن فى أهراء كبيرة وتبقى تحت تصرف القصر. ومن الاختصاصات التى كانت تحت إشراف رئيس الخزانة موضوع الجزية الأجنبية

فقد كان يتحتم عليه أن يتأكد من أنها تدفع فى وقتها المحدد لها وأنها هى الكمية الصحيحة، ومن الأنواع اللائقة، قبل أن يقيد كبير الكتاب جميع مفرداتها وتنقل لايداعها فى مبنى خاص فى طيبة يسمى «البيت الأبيض» وكان هذا البيت فى تلك الأيام ممتلئا إلى آخره ولا يكاد يتسع لجميع أنواع الجزية التى كانت ترسل إلى مصر من بلاد النوبة وآسيا منذ أن قام تحوتمس بحروبه.

كانت حتشبسوت وزميلاتها قد تعلمن أنه بينما كان للبلاد الأخرى نيل فى السماء «أى كانت تعيش على المطر»، فقد كان لمصر نيل ينبع من العالم السفلى وأنه كان نهرا مباركا. انهن لم يعرفن شيئا عن منابعه فى الجبال التى تقع إلى الجنوب. ففى «ليلة النفطة» وهى تحدث مرة واحدة فى كل عام كانت الإلهة ايزيس تذرف دمعة واحدة، وعند ذلك يفيض ذلك النهر الغامض العجوز وتزداد مياهه ويتحول الهواء الجاف إلى هواء مشبع بالرطوبة، وتصبح ملابس الناس وجلودهم لزجة الملمس، ويكثر البعوض والحشرات الأخرى وينتشر المرض فى كل مكان. ولكن لم يكن أحد يهتم بذلك فالنيل يرتفع لأن أوزيرس قد أرسل الفيضان السنوى.

وفى عيد «بدء النيل» كان الكهنة يضعون تمثال الإله آمون فى سفينة مقدسة ويخرجون به من معبده فى طيبة ويجدفون به على صفحة النيل ليقدموا القرابين إلى المياه. وقد ذكر اليونان بعد ذلك العصر بألف سنة أن القربان الأكبر فتاة حية، وسواء أكان ما قالوه صحيحا أم غير صحيح أو أن تلك العادة لم تمارس إلا بعد العصر الذى نتحدث عنه، وهو الأسرة الثامنة عشرة، فإن ذلك شىء لا نعرف عنه شيئا لأنه لم تصل إلينا أية وثائق خاصة به. وما من شك فى أن فرعون، وكان هو الآخر إلها يعيش بين الناس، وكان يقدم هو والكهنة المآكل والزهور والنبيذ والجعة إلى أوزيريس عندما كانوا يبتهلون إلى الإله آمون ليكون الفيضان مباركا.

كان الناس يبتهجون ويمرحون مرحا شديدا فى الاحتفال بالنيل (ومازال المصريون يحتفلون بذلك العيد حتى الآن ولكن فى صورة مختلفة). كانت السفينة المخصصة لذلك الاحتفال سفينة فخمة تليق بالإله، وكانت تظل فى مكانها فى المعبد طيلة أيام السنة، ولكن الآن وقد سحب الناس جميع السفن العادية من الماء ووضعوها فى أماكن أكثر ارتفاعا من المستوى الذى يتوقعون أن تصل إليه مياه الفيضان وتوقف سير السفن حتى تعود المياه إلى هدوئها، فان سفينة آمون خرجت وسارت على صفحة النيل فى عظمة ليقوم الإله بنزهته.

وأخذ النهر يرتفع بالتدرج حتى هدم شاطئيه، وغطى الفيضان الحقول المزروعة فاغرقها، وأصبحت القرى مثل الجزر فى وسط المياه، وكثيرا ما اكتسحت مياهه الحمير والماشية والكلاب، وفى بعض الأحيان الناس أيضا.

ولكن الثمن الذى كانت تدفعه البلاد قليل إذا قورن بالخيرات المنتظرة وذلك الماء الأسمر المحمل بالغرين الذى يجلبه النهر معه، كان النيل يجلب الطمى والحياة والخصب، وهو أحد عجائب الدنيا. وبعد قليل، عندما تصبح مياه الفيضان أشبه بمرآة تنعكس فيها السماء وبعد أن يكون باذر الحبوب قد خرج ليبذرها وقد جمع ملابسه ولفها حول خصره، يأتى اليوم الذى يصبح فيه مكان تلك المياه مرة أخرى حقولا خضراء تتماوج زراعتها . حقا انها لمعجزة.

إن كل شىء يعتمد على الفيضان، ليست المحاصيل فحسب بل الحيوانات والناس. لقد قال هيرودوت المؤرخ الإغريقى إن «مصر هبة النيل» ومازال هذا صحيحا حتى اليوم كما كان بالأمس بالرغم من وجود الخزانات الحديثة التى تسيطر على الفيضان وتنظم تصريف مياهه.

وكانت التقارير الخاصة بارتفاع مياه النهر ترسل إلى الوزير فى طيبة يوميا ليرفعها إلى فرعون، وكانت هذه التقارير تبعث بها المحطات المخصصة

لقياس هذه الزيادة وتسمى «مقاييس النيل» أقاموها فى أماكن بارزة فى داخل النهر. ويمكن للإنسان أن يرى ما بقى من تلك المقاييس فى جزيرة الفنتين وفى أسوان وجزيرة الروضة بالقاهرة.

وكان يتوقف تقدير مقدار الضرائب فى السنة القادمة ومشروعات الزراعة على ارتفاع الفيضان فى هذه السنة، إذ أن الفيضان القليل يعنى المجاعة أو الفاقة على الأقل، ولهذا كانت الضرائب تحدد على أساس قيمة أقل من القيمة المعتادة ليساعدوا الناس على اجتياز مايصيبهم من محنة. وكان فرعون هو الشخص المسئول عن جميع المشكلات التى توثر فى كيان البلاد كلها وكان من المحتم على حتشبسوت أن تتلقى الدروس فيها وتلم بها فى وقت مبكر من حياتها.

كان تتويج فرعون وطقوس اعتلائه للعرش على أكبر جانب من الأهمية من ناحية العقيدة الدينية، لأنه لم يكن الحاكم المطلق التصرف فى البلاد فحسب، ولكنه كان أيضا الكائن الذى تجسد فيه الاله حورس بن أوزيريس الذى تعتمد عليه حياة البلاد وخصبها.

وقبل أن يتم عمل الطقس الأخير من طقوس تتويج حتشبسوت ووضع تاج مصر المزدوج فوق رأسها فى معبد آمون فى طيبة كان على حتشبسوت أن تقوم برحلة تقليدية إلى مختلف معابد الآلهة الأخرى فى أماكن عدة فى البلاد فيما بعد على جدران معبدها فى الدير البحرى وذلك بعمل رسوم بارزة ومنحوتة فى الحجر، وبالكتابات الهيروغليفية.

وهذا هو وصفها لتلك الرحلة : «وكانت جلالتها فتاة جميلة .. بدأت جلالتها الرحلة نحو الشمال تابعة لأبيها ملك الوجه القبلى والوجه البحرى .. له الحياة إلى الأبد.

لقد ذهبت إلى أمها حتحور أميرة طيبة وإلى الآلهة «بوتو» سيدة «توب» وإلى آمون رب عرش الأرضين .. وكانوا جميعا مسرورين منها».

وعندما أصبحت ملكة على البلاد قدمت القرابين فى المعابد وأقامت التماثيل وأصلحت كل ما كان مخربا، وفى مقابل ذلك كانت تقدم إليها تلك المعابد شارات الملك التى كانت لمدنها عندما كانت عواصم الأقاليم مستقلة.

وعندما عادت إلى طيبة، تمت مراسيم تتوجيها وجلست على العرش وكان اسم العرش الخاص بها «كا - ماعت - رع» بنت الشمس، ونراها فى رسوم هذه الطقوس التى نجدها فى معبد الدير البحرى تقف بين كاهنين يمثلان الالهين حورس وست وهما يضعان تاجى الصعيد والدلتا فوق رأسها.

وعند ذلك عانقها أبوها وقدمها إلى كبار الموظفين وأشراف البلاد الذين كانوا مجتمعين هناك، وفى هذا المنظر نراها فى صورة شاب يقف أمام الملك وعلى احدى بيلونات تحوتمس فى الكرنك نراه يكمل القصة قائلا : «تعالى أيتها المباركة، إنك أنت الشخص الذى آخذ بين ذراعى، لكى ترى جميع أوامرك وهى تنفذ فى القصر .. لقد تسلمت وظيفة التاج المزدوج، وحلت بك بركة قوتك السحرية، إنك قوية بشجاعتك، وصاحبة السلطان فى الأرضين عندما ترشفين فى القصر وجبينك مزدان بالتاج المزدوج الموضوع فوق رأسك لأنك أنت وريثتى» وبعد ذلك يخاطب المجتمعين : «ان هذه الإبنة .. حتشبسوت الحبيبة، أضعها فى مكانى .. ومنذ الآن سترشدكم، فاستمعوا إلى قولها واخضعوا لأوامرها .. إن من يعبدها سيعيش، وأما من يقل شرا ضد جلالتها فانه يموت»، والآن وقد تم تتويج حتشبسوت فانها أصبحت حاكمة مع أبيها، لا بالإسم فحسب ولكن فى الواقع أيضا.

كان تحوتمس قد أخذ يحس بمتاعب التقدم فى السن، لقد قارب الستين من العمر وأصبح أصلع بعد أن تساقط كل شعر رأسه وكان يخيل لمن يراه أن

أسنانه البارزة أصبحت أكثر بروزا عن ذى قبل. وأخذ يترك مهام الدولة اليومية شيئا فشيئا لحتشبسوت، وكان يستعيض عن ذلك بصحبة زملائه الذين اشتركوا معه فى حروبه. كان أحدهم وهو « أحمس بن أبانا» قد حارب مع أبيه أمنحوتب ومع جده أحمس من قبله. وكان بحق من رجال الحروب القدماء.

وقد قرر هذا القائد بعد حروب تحوتمس فى آسيا أن الوقت قد حان، ليستريح من الخدمة إذ كان قد بلغ التسعين أو ما يقرب منها، وكتب فى نقشه فى مقبرته : «أنى قد كبرت ووصلت إلى سن كبير، وسأرتاح فى المقبرة التى أعددتها بنفسى» .

كان تحوتمس يحب الاستماع إلى ما يقصه ذلك المحارب القديم من ذكريات، ولكن أحمس بن أبانا قد ذهب إلى مقره الأبدى وأحس تحوتمس أن الوقت قد حان، ليفكر فى تشييد قبره الذى يدفن فيه، وحان الوقت أيضا، ليسجل تاريخ حكمه على جدران الأماكن المقدسة فى البلاد.

فعلى جدران معبد أوزيريس فى أبيدوس، وهى تقع إلى الشمال من طيبة، وهو أحد المعابد التى رممها وأضاف إليها وجملها، نراه يترك مثل هذه النقوش على الحجر(وهى مكتوبة بالهيروغليفية، إنها كلمات شخص يحدثنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وهى لا تخلو من المباهاة والاعتزاز : «لقد فعلت أكثر من أى ملك(حكم قبلى.

وكان الآلهة مسرورين بحكمى وكانت معابدهم فى أعياد مستمرة لقد مددت حدود «تامرى» (مصر) إلى آخر ما تصل إليه الشمس وجعلتها فوق كل بلد آخر».

وكان موضوع اختيار مكان لمقبرته الشخصية يسبب له بعض الهموم. ففى أى بقعة يمكن أن يدفن ومعه كل ما يوضع مع الفراعنة من مظاهر

العظمة والفخفخة، ويتفادى التعدى على تلك المقبرة وسرقتها، والاعتداء على تابوته وأثاثه الجنائزى الفخم ؟ إنه لايمكن أن يضمن الخلود إلا إذا ضمن عدم الاعتداء على قبره لأن روحه «الكا» يجب أن تتمكن من أن تعود مرة بعد أخرى إلى بيتها لتتمتع مرة أخرى بمباهج الحياة على الأرض.

فمنذ سنوات كثيرة كان أمراء وأشراف طيبة يدفنون فى الضفة الأخرى من النهر، على حافة الصحراء، بعيدا عن متناول فيضان النيل. ولكن مكان تلك المقابر كان معروفا ولم يكن خافيا على الناس أو سرا عليهم. أليس يوجد مكان أفضل من هذا المكان بين تلك المرتفعات والوديان فى تلك التلال الجرداء التى تصليها الشمس بنارها؟

فعلى الوزير إذن أن يعد حملة لتذهب إلى الضفة الأخرى من النيل فى الناحية الغربية منه، وأن يترك مكان المقابر القريبة من الزراعة وأن يتوغلوا فى أرض الصحراء التى تغرب فيها الشمس، تلك الصحراء التى يمرح فيها الغزال وطائر الأبيس، والغراب وثعلب الصحراء، ويعيش فيها العقرب والصل. وهما سامان ويسببان الموت لكل من الإنسان والحيوان. يجب ألا يكون هناك أى شخص ليراهم، يجب ألا يعرف أحد شيئا عن المهمة التى خرجوا فى البحث عنها.

بدأت الحملة الملكية السرية عملها فى وقت الفجر، وذهب كل من تحوتمس وحتشبسوت ومعهم الوزير إلى المعدية التى على الشاطئ الآخر، ولم يكن هناك أحد من الناس فيراهم لقد أدى الوزير عمله كما يجب.

وعندما تقدمت الحملة فى سيرها وأخذت تقطع ذلك الشريط المزروع متجهة نحو الصحراء كانت الشمس تلقى بأشعتها على الرمال التى تلونت بلون شبيه بجلد الأسد وأحالت لون قمم الصخور بين شعب التلال من اللون الأشهب القاتم إلى لون النحاس.

لم يعد هناك موضع واحد فيه أثر للزرع لتلقى حتشبسوت بأنظارها عليه، ومع ذلك فعندما استدار بهم الطريق بين الصخور تجلى أمامهم منظر فيه جمال طبيعى، منظر مكان غريب ولكنه على قدر من الجمال يجعله صالحا ليكون مقرا لقبر فرعون. وكان يحوم فوق رءوسهم صقر عندما تركوا مكان المعبد الجديد الذى سيعتقد الناس جميعا أن تحوتمس مدفون علي مقربة منه عندما يأتى ذلك اليوم، وسيقومون بطقوس دفن غير حقيقية بينما تكون مومياوه فى حقيقة الأمر مدفونة داخل تابوتها سرا فى ذلك القبر الخفى.

وهناك، عندما مروا بمقابر أمراء طيبة الأشراف فى المكان المعروف الآن باسم القرنة، اتجهوا نحو الشمال الغربى،إلى واد ضيق شبيه بعنق الزجاجة تظلله صخور التلال التى تلتوى التواءات متتالية لا نهاية لها، كما بدت لهم فى ذلك اليوم، إنهم كانوا يخترقون قلب سلسلة الجبال.

لم يكن يسمع فى ذلك المكان أى صوت اللهم إلا صوت الهواء الذى يهب فوق رءوسهم والذى كان يزحزح أحيانا قطعة من الحجر أو يقذف ببعض الرمال فتتطاير فى الجو من بعض الفجوات الخفية بين الصخور. فإلى أين يقصدون ؟ ألا يعطى تحوتمس إشارة ليتوقفوا عن السير؟ لقد كانت حتشبسوت صامتة ومنطوية على نفسها.

إن الكلام كان أشبه شىء بالتجديف فى هذا المكان البعيد الذى يسوده الغموض والوحدة. ولكن حالتها النفسية قد تغيرت عندما رأت يربوعا شب أمامها وسحلية ذات لون أزرق وأصفر تنقض على حشرة، فلم تكن إلا فتاة صغيرة.

وبعد ذلك أوقفهم دليلهم لكى يتبع أثر صل ذى قرنين إلى جحره الذى اختفى فيه ويقتله بعصاه التى كان يحملها فى يده.

وأخذوا بعد ذلك يجدون السير حتى أخذ الوادى فى نهاية الأمر يتسع أمامهم، فانبهرت أنفاسها. وفى اللحظة نفسها رأى أبوها ورأى الوزير ما وقعت عليه عيناها.

لقد كانت الجبال التى تحيط بذلك الوادى الضيق أشبه بالجدران الشامخة وفى أعلاه قمة، أنها هرم طبيعى، الشكل المقدس الذى يرتبط بعبادة الشمس، لقد لاحت لهم هذه البقعة غير المطروقة كأنها وجدت خصيصا ليكون فيها البيت الأبدى لفرعون، لتكون فيها مقبرته.

إننا نعرف هذا المكان اليوم تحت اسم وادى الملوك، وكان تحوتمس الأول الذى دفن فى ذلك الوادى فيما بعد هو أول من دفن فيه ثم تلته حتشبسوت، كما دفن فيه ملوك الدولة الحديثة تقريبا، وهم فراعنة مصر عندما كانت فى أوجه قوتها وسؤددها.

ويمكنك أن تذهب وترى المقابر ذات التوابيت الخشبية والمنحوتة فى جوانب الجبل، فى حجرات قطعت فى داخل الصخر فى نهاية سراديب طويلة مظلمة. وجدرانها وسقوفها مغطاة بطبقة من الملاط وعليها صور ملونة غريبة للآلهة والآلهات المصرية، ومن بينها صور لفرعون وهو فى سفينة الشمس التى تقطع السماء فى أثناء الليل وتستقبلها فى العالم الآخر الهة شجرة الجميز وفى يدها اناؤها المملوء بالماء المنعش، لقد وزنوا قلبه فوجدوه طاهرا فأخذوه أمام الاله أوزيريس كروح مبجلة، إن الألوان مازالت جميلة حية وتظهر كما لو أنهم انتهوا من عملها اليوم فقط.

ولكن حتى هذا المكان الخفى، الذى لم يستمر سرا خافيا مدة طويلة، لم تسلم مقابره من السرقة، وربما كان اللصوص هم أنفسهم الأشخاص الذين عملوا فى قطع تلك المقابر وزخرفتها. والمقبرة الوحيدة التى نجت من التخريب

هى مقبرة توت عنخ آمون التى لم يكن العمل قد تم فيها عند دفنه، والتى كانت صغيرة الحجم بالنسبة إلى غيرها.

وقد عثر مكتشفها هوارد كلوتر الذى كان يعمل لحساب اللورد كارنارفون على مومياته سليمة كما عثر على حلية كاملة فى داخل تابوته الحجرى.

وكان توت عنخ آمون فى تابوت موضوع داخل بضعة توابيت أخرى كل منها أصغر من الآخر، كما عثر فى الصالة التى قبل حجرة الدفن على عرباته وأثاثه وحليه ووسادات رأسه، وكلها من ممتلكاته الثمينة التى كانت روحه (الكا) تحب الاستمتاع بها عندما تعود من العالم الآخر لتتذوق ملذات الحياة فوق الأرض.

وقد سرقت المقابر الملكية الأخرى منذ عهد طويل وسرق اللصوص المومياءت والكنوز التى فيها، ولم يعثر على مومياء حتشبسوت، وما من شك فى أن اللصوص حطموها عندما جردوها مما كان معها من ذهب وحلى.

وفى طريقهم إلى وادى الملوك ألقت حتشبسوت نظرة على المكان الذي قررت أن تبنى فيه معبدها الجنائزى فيما بعد، وهو مدرج واسع فى أحضان الجبل الصخرى تقف صخوره كأنابيب الأرغن، وتصلح صلاحية تامة لأن يشيد أمامها بناء ملىء بالأعمدة والأبهاء المفتوحة التى يتخللها الضوء والهواء، وتخيلت أنه يمكنها أن تسطر هناك أمجاد حكمها وما ستحققه من انتصارات.

ويعرف معبد حتشبسوت فى الوقت الحاضر باسم الدير البحرى لأنه حدث بعد موتها بقرون كثيرة أن بعض المتوحدين فى القرون المسيحية الأولى اتخذوه مكانا يعيشون فيه، وبنوا فى أحد مدرجاته كنيسة متواضعة من الطوب اللبن ليتعبدوا فيها، ولكن هذه المبانى من الطوب اللبن قد أزيلت من مكانها كما نظف المعبد مما كان يغطيه من رمال.

ونراه الآن قد وقع كثير من أحجاره من أماكها وتحطم الكثير من التماثيل، سواء ما كان واقفا منتصبا منها أو على شكل أبو الهول، ولكنه رغم ذلك كله من أجمل المعابد فى مصر كلها، ومن دواعى المسرة لنا أنها كانت تحب الفخر والمباهاة كغيرها من الفراعنة وكانت تحب تشييد المبانى والتظاهر، وأن فكرة التواضع كمظهر من مظاهر العظمة لم تخطر لها على بال.

وبمجرد اختيار ذلك الوادى الموحش الذى تعلوه قمة هرمية الشكل ليكون مقرا لتحوتمس، بدأ «أنينى» يخطط وينظم أمر حفر المقبرة التى تحت سطح الأرض. وجاءوا بالصناع من طيبة على الضفة الأخرى من النهر وأسكنوهم فى مساكن أشبه بالسجن بنوها لهم فى مكان بين تلين حتى يسهل وضع الحراس على كل ناحية من الناحيتين ليمنعوهم من الهرب.

وكان من الضرورى أن يبقى العمل فى طى الكتمان، ولهذا كان محرما على العمال أن يغادروا المكان فى أى وقت من الأوقات حتى لا يتحدثوا بذلك إلى غيرهم، ومازالت بقايا القرية التى كانوا يعيشون فيها باقية حتى الآن.

ويلوح أن تحوتمس قد أحس باقتراب منيته فأخذ يفرق العطايا من الذهب والفضة على معبد الاله أوزيريس فى أبيدوس حتى يقوم الكهنة بتقديم القرابين وعمل الصلوات له بعد موته، وحتى يستمروا فى ذلك إلى الأبد. وأخيرا عندما بلغت حتشبسوت سن العشرين فى عام ١٩١٤ ق.م ، وكان تحوتمس قد قضى خمسة وعشرين عاما على العرش «استراح من الحياة وذهب إلى السماء ليختلطبالآلهة».

وهنا بدأت حتشبسوت وقتا عصيبا فى حياتها. لقد كانت وريثة للعرش، وتم تتوجيها، وكانت شريكة مع أبيها فى الحكم، ولهذا فإنه من المعقول أن تكون هى الفرعون الذي يلى تحوتمس على العرش.

ولكن تقاليد البلاط ودسائس الكهنة بدأت تتدخل فى الأمور لأن فكرة حكم امرأة ووضع جميع السلطات فى يديها كانت أمرا يغضب كثيرا من الناس. ولهذا السبب كان من المحتم أن يشترك معها أخوها غير الشقيق، وذلك الشخص الواهن الصحة المسمى تحوتمس الثانى، وأن يكون شريكا لها فى الملك كفرعون للبلاد وأن تصبح هى زوجة ملكية لا أكثر من ذلك.

ولم تكن هناك فائدة ترجى من وراء الاحتجاج، فقد كانت الظروف ضدها، وبدءوا يعدون معدات زواجها من تحوتمس، وسمحت حتشبسوت لوصيفاتها وقلبها مثقل بالهموم بأن يعدوا لها الحمام ويعطرنها ويلبسنها ويجملنها بأنواع العطور ومواد التجميل التى كانت المصريات يحببنها فى ذلك الوقت : كالكحل لتخطيط الحواجب وعمل شرطة صغيرة بجوار كل عين لتظهر أكثر اتساعا، والحناء لصبغ يديها باللون الأحمر وكذلك قدميها ليظهر جمالهما فى الصندل ذى السيور الجلدية. وأوضحت المرآة التى أمسكتها أنها شابة وجميلة، وكان مديحها يتغنى به من حولها وهم يحملونها إلى معبد الإله آمون حيث زوجها الكاهن الأكبر إلى تحوتمس الصغير الذى كان مظهره أقرب إلى الفتاة منه إلى الشاب بسبب شعره الأسمر المجدول صناعيا، وقوامه النحيف. وكان العازف على الجنك يغنى قائلا :

«انها عذبة الحب، ابنة الملك» فيردد الآخرون : «أنها عذبة الحب ابنة الملك».

ان ضفائر شعرها سوداء مثل سواد الليل.

خصلات شعرها سوداء مثل نبيذ العنب،

إن قلوب النساء تنعطف نحوها وهن فرحات.

وينظرن إلى جمالها الذى لا يمكن أن يقرن به أحد.

إنها عذبة الحب ابنة الملك.

ما أجمل ذراعيها وهى تتمايل برقة فى رقصها.

وتسيل قلوب الرجال وتصبح كالماء عندما تنظر إليهم.

إن جمالها أعظم من أن يصفه لسان مخلوق.

إنها عذبة الحب ابنة الملك.

ولكن بينما كانت تستمع إلى كلمات تلك الأغنية فمن الجائز أن صدى أغنية أخرى كانت تتردد فى أعماق نفسها، أغنية غناها لها فى اليوم السابق أحد الأشخاص الذى يحرم عليها أن تتزوج منه.

تعالى إلىّ واخترقى الحديقة أيتها الحبيبة.

إن حبى مثل كل زهرة تتفتح.

إنها طويلة وممشوقة كنخلة صغيرة.

وعلى كل خد من خدودها حمرة تشبه الورد فى لونها.

ولسنا نعرف إلا القليل عن حكم تحوتمس الثانى القصير المدة اللهم إلا أن ثورة قامت فى الجنوب، ولكنه بدلا من أن يقود الجيش بنفسه ويسير إلى الأعداء - كما كان يفعل أبوه لو كان فى مكانه - فإنه اكتفى بتوجيه أمر شديد من القصر يأمر فيه قواد جيشه ألا يتركوا شخصا ذكرا من شعب العدو على قيد الحياة.

وفى أحد نقوش ذلك العهد نراه يضع قدمه دليل الانتصار فوق رقاب الأسرى المكبلين بالأغلال، والذين لا يستطيعون الحراك، وهم الذين عادت بهم الحملة التأديبية التى أرسلها إليهم.

كان تحوتمس شخصا ضعيفا وربما كان مريضا فى الوقت نفسه، وبعد وقت قصير أصبح واضحا أنه سائر فى طريق الموت وبدأت حتشبسوت تحكم البلاد باسمه كفرعون، وأخذ رجال البلاط وكبار الموظفين يتساءلون ما الذى سيحدث عندما يموت ؟ لم يكن هناك أمير آخر يستطيع أن يخلفه علي العرش كما لو أنها ستحكم البلاد فى النهاية بمفردها. وسر أصدقاؤها الذين يعرفون قدرتها وقوة خلقها من هذه الفكرة وكانوا على أتم استعداد ليخدموها باخلاص عندما يحين الوقت.

ولكن شخصا آخر فى معبد آمون بالكرنك كان يدبر المؤامرات للوصول إلى العرش مثيرا الشعور العام بين الكهنة والناس ضد فكرة قيام امرأة بحكمهم.فهل كانت حتشبسوت على علم بتلك المؤامرة عن طريق جواسيس القصر؟ أو أن ما حدث بعد ذلك كان مفاجأة تامة لها؟

لقد مات تحوتمس عام ١٥٠١ ق.م. وفى أحد الأيام، بعد موته بوقت قصير، وعندما كانت فى المعبد لتشهد احتفالا يخرج فيه موكب الاله آمون، وقفت المحفة التى تحمل تمثال الاله أمام كاهن صغير السن وأبت أن تتزحزح بعد ذلك، فوافق جميع الحاضرين على أن ما حدث ليس إلا علامة بأن آمون قد اختاره ليصبح زوجها، وليكون الملك القادم.

ولم يكن أمام حتشبسوت إلا الخضوع. فإن ذلك الكاهن الصغير الذى كان يسمى أيضا تحوتمس والذى أصبح يسمى فيما بعد تحوتمس الثالث ومن ملوك الأسرة الثامنة عشرة، كان ابن أخيها وتجرى فى عروقه الدماء الملكية من ناحية أبيه، ولكن أمه «ايزيس» لم تكن إلا إحدى الزوجات الثانويات، لقد أتت الدسائس بثمارها.

وفى اليوم الثالث من شهر مايو ١٥٠١ ق.م. ترك تحوتمس عمله كأحد

صغار الكهنة فى معبد آمون ليدخل القصر الملكى للفراعنة. كان عمر حتشبسوت فى ذلك الوقت أربعا وثلاثين سنة فتزوجها وعادت إلى مركزها السابق أى زوجة الملك : «الزوجة الملكية الأولى» ومنذ اليوم الأول سادت بينهما المنافسة والمرارة، ولكن كان هناك أطفال من تحوتمس الثانى، ابن وابنتان. فأما الابن فقد مات فى طفولته ولم يبق إسمه على أى أثر من الآثار، وأما الابنتان فاسمهما «نفرو رع» «ومريت رع حتشبسوت».

ولم تكن الملكة وحدها هى التى تحس بعدم السعادة لما وصلت إليه الأمور بل كان هناك آخرون غيرها، وعلى الأخص «سنموت» ذلك الرجل القادر الطموح الذى عينته ليكون مربيا لابنتيها. كان سنموت شديد الذكاء جم النشاط كما نستطيع أن نرى ذلك فى قسمات وجهه وأنفه المعقوف ومحياه الغامض الملىء بالتجاعيد كان مخلصا لحتشبسوت ومعجبا بها كل الإعجاب، ولم يلبث حتى جمع حوله شركاء له وكون حزبا للملكة، ولم يلبث هذا الحزب إلا وقتا قليلا حتى اشتد نفوذه وأصبح قويا لدرجة أن فرعون الذى لم تكن لديه الخبرة الكافية أصبح عاجزا عجزا تاما على حكم البلاد واضطر لإخلاء المكان لزوجته. وأخيرا تم إعلان حتشبسوت فى عام ١٤٠٤ ق.م. ملكا على الصعيد والدلتا وحكمت مصر وحدها كفرعون.

كانت هذه اللحظة هى لحظة النصر. ففى أغانى المديح التى كانت تغنى أمام فرعون فى كل يوم كانوا يسمونها «حورس الأنثى» وأضافوا تاء التأنيث فى آخر الكلمة التى تدل على «الجلالة» وأخذت ترتدى ملابس الرجال عند ظهورها فى الاحتفالات الرسمية كما كانت تلبس لحية مستعارة صغيرة كما كان يفعل الفراعنة فى المناسبات الرسمية. لقد كانت تتمنى دائما أن تكون ولدا وها هى قد أصبحت حرة لتقوم بدور الملك بدلا من دور الملكة فى مصر كلها.

ويشير أنينى «إلى تحوتمس الثالث بأنه الملك الذى يجلس على عرش من أنجبه» ولكنه يقول أيضا «ان أخته، الزوجة الآلهية حتشبسوت كانت تدير شئون الصعيد والدلتا بتدبيرها، وكانت مصر تعمل لها وهى مطاطئة الرأس، وكانت صاحبة الأمر، لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة».

والخانات الملكية التى كتب إسم حتشبسوت فى داخلها، والتى تظهر على جدران الدير البحرى والكرنك وفى غيرهما من الأماكن فى مصر صريحة فى معانيها «ملك الصعيد والدلتا، كا - ماعت - رع، ابنة الشمس صديقة آمون حتشبسوت، حورس الذهبى : مانحة السنين الهة الإشراقات، هازمة جميع البلاد، التى تحيى القلوب، زوجة آمون الكبرى، السيدة القوية».

ولكن ما الذى فعله تحوتمس عند هزيمته ؟ هل هرب؟ هل ظل فى القصر حزينا مكتئبا؟ إن التاريخ لا يوضح لنا ذلك، ولكن من الصعب أن نتصور أن الاثنين يستطيعان بعدما حدث بينهما أن يكلم أحدهما الآخر.

فقد رأى تحوتمس انهيار ما كان يطمع فيه، أما هى التى كانت زوجته، فإنها بالرغم من أنوثتها كانت المنتصرة المتسلطة.

ولكن الدراسات الأثرية رغم ذلك تلقى شيئا من الضوء على شعور تحوتمس فعلى أثر موتها أخفى معظم نقوشها ومبانيها فى الكرنك، وأقام أمامها جدرانا شيدت من الحجر كما أمر بتشويه خاناتها الملكية وصورها. ويختلف الأثريون فيما بينهم اختلافا كبيرا فيما إذا كان تحوتمس قد أمر حقيقة بهذا التشويه انتقاما منها أو أن ذلك قد حدث فيما بعد، بعد فترة من الزمن عندما أبى الناس أن يصدقوا أن امرأة يمكن أن تصبح فرعون للبلاد، وأن تضفى على نفسها كل هذه الأمجاد.

ولكن الحقيقة ما زالت ماثلة أمامنا فقد حدث التحطيم ولو درسنا حياتهما

معا لوجدنا كل شيء يشير إلى الإنتقام والمرارة التى تجمعت مع مرور السنين.

وعينت حتشبسوت مناصريها المخلصين الذين كانوا من حزب الملكة فى أعلى المناصب فى البلاد عندما تم لها الفوز. وأصبح «سنموت» أقرب الناس إليها مديرا للقصر وحاملا للأختام الملكية وعينته فى وظيفة «أنينى» مشرفا على بيوت آمون وعينت أخاه «سنمن» في وظيفة كبرى أيضا، وعينت «جابوسنب» الذى كان من الأشراف الأقوياء وزيرا للجنوب وكاهنا أكبر لآمون فجمع بين يديه الإشراف على كل من الناحيتين المدنية والعسكرية.

والآن وقد أصبحت حتشبسوت فى نهاية الأمر، وحدها حاكمة للبلاد فما الذى فعلته لمصر! هل تخرج إلى الحرب وتستولى على البلاد الأجنبية كما فعلى أبوها؟ أو أنها تبدأ بوضع الأمور فى نصابها وتبنى مصر كبلد مزدهر آمن؟ وكان السلام هو أقرب الأشياء إلى قلبها كامرأة، كما كانت تحب أيضا الحياة وفنون السلم. وكانت تحب ديانتها من كل قلبها بما فيها من آلهة كثيرين، وكانت تحس بحق أنها واحدة منهم، وكان لها أن تكتب على جدران معبدها فى الدير البحرى : «أنا إلهة، وأنا بداية الوجود» ولم يكن هذا القول تجديفا فى نظر المصريين، لأنهم كانوا يعتقدون أن الفرعون ليس إلا حورس بن أوزيريس الذي يعيش فى الأرض وأن رفاهية مصر كلها تعتمد عليه.

ورأت حتشبسوت أن خير ما ينسيها أحزانها الخاصة ومتاعبها هو أن تنشط فى العمل، فأى شيء أفيد وأكثر عزاء من أن تشيد معبدا لنفسها؟ وعندما رأوا ذلك المكان المستدير فى بطن الجبل الذى وقع عليه اختيارها، كانت حماسة كل من سنموت والوزير حابوسنب لا تقل عن حماستها.

كان هذا المكان فى الوقت ذاته مقدسا للآلهة حتحوت التى كانت حامية له، وكانت تنيل العاشقين ما ترغب فيه قلوبهم ولهذا كانوا يقدمون لها القرابين،

فما أجمله من مكان يصلح ليكون معبدا لهذه المرأة الجميلة التى كانت فرعون لمصر، ولم يمض إلا زمن قصير حتى أصبح ذلك الوادى الموحش مليئا بنشاط كبير.

وإلى جانب الموقع الذى اختارته كان يقوم معبد عمره أكثر من خمسمائة سنة بناه الملك منتوحوتب الذى كان واحدا من أسرة حكمت مصر من قبل وكان معبده فى أيام حتشبسوت مخربا ومهجورا.

وأوحت عمارة معبد منتوحوتب إلى سنموت أن يتخذه مثالا يحتذيه، لأنه كان متلائما مع الموقع الطبيعى الذى حوله إذ أن أكثر أجزائه كان مفتوحا وغير مغلق على أماكن مظلمة تحيط بها الأسوار شأن معظم المعابد المصرية، ولهذا آثر أن يقتبس تخطيطه ليكون أساسا للمعبد الجديد الكبير الذى كان يبنيه لملكته حتشبسوت.

وكان اهتمام هذه الملكة بالفن والعمارة كبيرا إلى درجة تجعلنا نجزم بأنه كان يتحتم على سنموت أن يعرض عليها جميع التخطيطات التى يقوم بعملها ليحصل على موافقتها قبل الشروع فى تنفيذها. فالبوابة التى فى السور المحيط بالمعبد تؤدى إلى طريق فخم تقوم على جانبيه تماثيل رابضة على صورة أبو الهول ورءوسها على هيئة رأس الملكة نفسها، وفى آخر الطريق يبدأ أول طريق صاعد، ثم إلى درجات تؤدى إلى مدرجات ذات أعمدة يتلو بعضها بعضا وعلى كل من جانبى الطريق وضع تصميم أحواض صناعية لتنمو فيها الزهور، وفى كل ناحية بركة لنباتات البردى.

ولانشاء مثل هذه الحديقة الرسمية استلزم الأمر عمل حفرات وملئها بطمى النيل الخصب، كما كان يتحتم على موظفى المعبد أن يقوموا بسقيها كل يوم.

وقد كشفت الحفائر بعد رفع الرمال التى غطت هذه المنطقة عن تلك الحفرات وفيها بقايا من النباتات ذات الزهور التى كانت تنمو فيها البرك الضحلة التى كانت على شكل T، وكانت تنمو فيها نباتات البردى. ولاشك أن هذه الحديقة اليانعة كان لها وقعها على المتعبدين بعد أن أجهدوا أنفسهم فى السير فى تلك الصحراء المحرقة ذات اللون الذهبى وفى صعود المدرجات. وفى الساحة الخارجية التى كانت تقوم فيها تماثيل كبيرة فى صورة الاله أوزيريس كان الكهنة يتلقون من أولئك الزائرين ما حملوه من هدايا أتوا بها ليقدموها لالههم، ثم يقودونهم بعد ذلك ليقدموا القرابين لتمثاله فى داخل الهيكل الخفى عن الأنظار.

وكان اليوم الذى حددوه للطقس المعروف باسم «مد الحبل» ووضع حجر الأساس فرصة لعمل احتفال عام كبير ولاشك أن منظم هذا الاحتفال هو سنموت «مدير بيت الاله آمون» وقد سارت حتشبسوت فى المقدمة ووراءها وزير الجنوب وجميع مديرى الإدارات وكهنة آمون. وحفروا حفرة فى كل ركن من الأركان الأربعة فى الأساسات المحفورة وذبحوا ثورا وقطعوه إلى أجزاء ثم سار الكهنة إلى تلك الحفرة وملئوها باللحم وغير ذلك من المأكولات ودعوا الآلهة ألا يتعرض فرعون لأى ألم من آلام الجوع فى العالم الآخر.

لقد عثر رجال الآثار فى العصور الحديثة على ودائع الأساس فى معبد حتشبسوت بالدير البحرى، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثروا أيضا على أرغفة من الخبز المخروطية الشكل وعلى كعكات مستديرة صغيرة الحجم وعلى شعير وتبن وعنب وعناب وبلح وبعض الخضروات والسمان ونماذج صغيرة لأوانى النبيذ.

كما عثروا أيضا على شىء فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البناء التى ينتظر أن يستخدمها العمال ومن بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقته وأزميله

وبوتقة صاهر المعادن، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبى وغرباله الذى يغربل به الرمال.

وبالرغم من أن المعبد الجديد كان مقاما تكريما للاله آمون ولابنته حتشبسوت فربما قد أحس هذا الإله بشىء من الغيرة لأن هذه المبانى لم تشيد فى معبده الكبير فى الكرنك. وعلى أى حال فقد ذكرت حتشبسوت أنه زارها فى المنام وطلب منها منها أن «تخلق (بونت) فى بيته»، وكلمة بونت هى الكلمة التى تدل على بلد غامض فى الجنوب الشرقى من مصر وكان له شاطئ خصب فيه أشجار البخور الثمينة، وإليه كان المصريون يرسلون الحملات للتجارة ولاحضار البخور الذى كانوا يحتاجون إليه لا حراقه فى أثناء القيام بالطقوس الدينية فى المعابد. ولا يعرف أحد على وجه التحقيق مكان بلاد بونت.

وقد اقترح بعض الجغرافيين والمورخين كلا من بلاد الصومال وزنجبار والشاطئ الجنوبى من بلاد العرب.

فكيف يتيسر لحتشبسوت تحقيق رغبة الاله ؟ وليس هناك إلا جواب واحد لامرأة فى مثل خلقها، يجب عليها أن ترسل أسطولا تجاريا إلى بونت ليأتى بأشجار كاملة النمو لتزرعها فى حديقة آمون داخل أسوار الكرنك.

ونرى جميع تفاصيل هذه الرحلة على جدران معبد الدير البحرى . فقد أشرف كل من سنموت والوزير على اعداد خمس سفن حملوها بالسلع التجارية المصرية وبهدايا الملكة إلى زعيم بلاد بونت.

وأخيرا جاء اليوم الذي قالت عنه نبوءة المعبد أنه يوم سعيد للسفر، فخرجت حتشبسوت وهى تلبس الملابس الرسمية وعلى رأسها التاج، واجتمع على جانب النهر كبار الموظفين والكهنة وجميع سكان طيبة، وقدموا القرابين لتطيب نفس آلهة الهواء لكى يرسلوا دائما رياحا طيبة، وجاءت ردود العرافين

مبشرة بالخير فرفعوا الهلب ونشروا الشراع وساروا متجهين نحو الشمال تتبعهم تمنيات الشعب الطيبة وتردد أصداءهم خلفهم.

وقد حدث فى أيام الدولة الوسطى أن المصريين حفروا قناة تربط النيل عند نهاية الدلتا بالبحر الأحمر، وقامت حتشبسوت بتنظيف هذه القناة وأعادت استخدامها لكى يستطيع أسطولها أن يسير فيها ويخرج إلى خليج السويس وبعده إلى مياه البحر الأحمر.

ونرى فى النقوش الخاصة بهذه الرحلة على جدران المعبد سفن الأسطول وهى تسير وإلى جانبها أسماك نيلية فى المياه ولكنا نرى بعد ذلك تحت سطحها أسماء البحر الأحمر، وقد تمكن علماء الأحياء المائية من تحقيقها وقالوا أنها من نفس الأنواع التى تعيش اليوم فى تلك المياه.

وعندما وصلوا إلى شواطئ بونت سالمين، رسا قائد الأسطول وأمر أن تنصب خيمته، واستقبله بالترحاب زعيم بلاد بونت، واسمه «بيرحور» وقبل بسرور الهدايا التى أرسلتها جلالة الفرعون، ونرى زوجته معه وقد رسموها سمينة إلى حد كبير، كما نرى أولاده أيضا مرسومين يتزاحمون حولهم يملؤهم حب الاستطلاع، وكانوا مسرورين بصفة خاصة بتمثال لحتشبسوت مع الإله آمون وقد أقيم هذا التمثال هناك فيما بعد على الشاطئ تذكارا لهذه المناسبة، وربما مازال قائما هناك إلى الآن يثير استطلاع أناس نسوا معناه منذ وقت طويل، ولكن نظرا لأن مكان بونت لا يعرفه إنسان على وجه الدقة فإن الأثريين لم يكتشفوه حتى الآن.

وبعد التعارف والمراسيم الخاصة بالتمثال بدأ موضوع التحدث فى التجارة ونرى فى النقوش طاولة وفوقها عقود الخرز، والطرائف المصرية الأخرى التى أحضرها القائد ليبادل عليها شعب بونت إذ لم تكن النقود معروفة لهم.

وتذكر حتشبسوت أن سفنها عادت محملة «حمولة كبيرة بعجائب بلاد بونت، وجميع الأخشاب الطيبة الرائحة وأكوام من البخور، ومعها أبنوس وعاج حقيقى وذهب آمون الأخضر...» وتقول أيضا أنه كان بالسفن مواد تجميل العيون، وجلود الفهد، وعدد كبير من القردة الحية والنسانيس، والطيور والكلاب وفهد قنصوه خصيصا من أجلها، وقد عاد معهم إلى مصر بعض أناس من بونت ومعهم أطفالهم.

استغرقت الرحلة فى ذهابها وايابها مدة عامين، وأخيرا عادوا لموطنهم ورست السفن فى طيبة. ولابد أن سكان طيبة كانوا يتطلعون وملؤم العجب عندما أنزلوا إلى الشاطئ سكان بونت ذوى الهيئة الغريبة وجميع حاصلاتها، ومن المؤكد أن عددا من الأطفال الصغار السمر اللون ساروا وراء القائد حتى وصل إلى أبواب القصر وبقوا هناك حتى طردهم الحراس، بينما كان القائد يقدم هدايا بلاد بونت وسلعها التجارية إلى جلالتها .

وقدمت حتشبسوت فى الحال نسبة كبيرة منها إلي آمون اعترافا بفضله فى عودة السفن سالمة، ودعت رجال بلاطها وكرمت سنموت والوزير باجلاسهما عند قدميها وأعلنت نجاح الحملة لمن كان حاضرا من الضباط والأشراف وقالت فى مباهاة «أن بونت قد نقلت إلى طيبة».

وأمرت بزرع إحدى وثلاثين شجرة من أشجار البخور فى داخل أسوار معبد الكرنك : « لقد أنشأت له (أى آمون) «بونت» فى حديقته كما أمرنى، وهى كبيرة إلى درجة أنه يستطيع التنزه فيها».

وقامت حتشبسوت بعمل آخر هام ولو أنه أقل شهرة من رحلة سفنها إلى بونت، إذ كان هذا العمل هاما لرفاهية المصريين لأنها أعادت العمل فى مناجم النحاس والملاخيت فى شبه جزيرة سيناء، فقد توقف العمل فى تلك المناجم فى

ذلك الوقت المضطرب فى أثناء حكم الهكسوس لمصر، ومازلنا نجد فى سيناء لوحة عليها كتابة، إحياء لذكرى هذا العمل وتمجيدا لما فعلته.

واحتفلت حتشبسوت بعيد «الحب سد» أو عيد تجديد ارتقائها للعرش فى العام الخامس عشر من حكمها، فقد عملت كثيرا من أجل شعبها وهيأت له الاستقرار والرفاهية والسلام كما أثبتت ولاءها للآلهة «لقد جددت ما كان قد تخرب، وأتممت ما لم يتم منذ الوقت الذى كان فيه الآسيويون ... والهمج فى شمال البلاد مخربين كل ما سبق عمله، وكانوا يحكمون متجاهلين الاله رع» ، هذا هو ما قالته فى نقش لها على واجهة معبد منحوت فى الصخر فى بنى حسن بين طيبة ومنف.

لقد نجحت حتشبسوت وانتصرت كملكة للبلاد، ولكنها كامرأة لم تعرف غير الحزن والخسارة. كانت علاقتها مع زوجها تزداد سوءا كلما مرت الأيام، وكبر فى العمر وأخذ يحس بخيبة الأمل، لأنه لا سلطان له، كما ماتت ابنتها الكبرى نفرو - رع، ولم يبق لها، كما حدث لأمها من قبل، إلا ابنة واحدة وهى مريت رع حتشبسوت التى أصبحت أميرة ملكية ووارثة للعرش.

ومهما كان الأمر فيجب الاحتفال بالعيد ويجب أن يقام أثر تذكارى مناسب ولكن ما هو ؟ أن حتشبسوت تقول لنا : «كنت أجلس فى القصر وأفكر فى الخالق عندما استحثنى قلبى لأقيم له فى بهو الأعمدة مسلتين ترتفع قمتاهما إلى السماء».

كان ذلك فى أوائل شهر فبراير، وأمرت باستدعاء سنموت لكى يبدأ العمل فى الحال ويجمع العمال وينظم أمر قطع تلك المسلتين الهائلتين التى تتكون كل منهما من قطعة حجر واحدة من محاجر الجرانيت فى أسوان على حدود بلاد النوبة. وأمرته حتشبسوت أن يكونا أكثر ارتفاعا من أى مسلة أقامها أى فرعون حكم قبلها .

وأخذ العمال يشتغلون بالأدوات المصنوعة من الحجر، لأنه لم يكن لديهم إذ ذاك أدوات من المعدن، وكانوا يستخدمون ايقاد النار والرافعات لفصل الجرانيت، وأخيرا استطاع العمال أن يقطعوا تلك المسلات ويفصلوها من الصخور فى المحاجر. وارتفاع كل منهما ٩٧٫٥ قدما وتزن أكثر من ٣٠٠ طن وقد حملوها إلى النهر بوضعهما فوق زحافات تسير فوق «درافيل» ونقلوها فوق سفينة بنيت لهذا الغرض – وربطوها فوقها – واضعين المسلتين فوقها وقاعدة كل منهما أمام الأخرى ، كما نرى ذلك فى رسم على أحد جدران معبد الدير البحرى منتهزين فرصة فيضان النيل وارتفاع مياهه لتعويم السفينة حتى تصل إلى طيبة.

واحتاج العمال إلى شهر آخر لنقشهما وصقلهما وتغطية الأجزاء الهرمية الشكل فى أعلى المسلتين بصفائح الذهب اللامع ثم أقامتهما فى مكانهما. «حقا، إن هاتين المسلتين غطتهما جلالتها بالالكتروم إن كلا منهما من حجر واحد من الجرانيت، ليس فيها كسرأو عرق. أمرت جلالتى بهذا العمل فى العام الخامس عشر فى أول يوم من شهر أمشير وانتهوا منه فى العام السادس عشر فى آخر يوم من شهر مسرى أى فى سبعة شهور منذ إعطاء الأمر بالعمل فى المحجر».

وكان المسئول عن تغطية الأجزاء العليا من المسلتين بصفائح الذهب الأبيض هو «تحوتى» المشرف على مخازن الذهب والفضة الذى يذكر لنا أن الملكة بنفسها، وفى بهو الأعياد فى داخل القصر وزنت أثنى عشر بوشلا، كيسا بعد الآخر.

وأقيمت المسلتان فى بهو الأعمدة التى كانت من خشب الأرز وهو البهو الذى شيده تحوتمس الأول والد حتشبسوت ومازالت احدى هاتين المسلتين قائمة فى مكانها، وبالرغم من أن الغطاء الذهبى المضىء قد نزع من قمتها

الهرمية فإنا مازلنا نرى بوضوح كامل صورة حتشبسوت راكعة أمام آمون وتتلقى منه شارات الملك.

ومن الأشياء التى قامت أيضا بعملها احتفالا بذلك العيد، أنها أمرت ببناء سفينة كبيرة رسمية لكى يتنقل بهذا الاله على صفحة النيل من معبده فى الكرنك فى أثناء الاحتفال بعيد النيل. وعندما كان يصل الاله إلى الشاطئ الآخر كان يحمله الكهنة فوق محفة على أكتافهم حتى يصل إلى قدس الأقداس فى معبد الدير البحرى حيث يقضى الليل فى البيت الذى شيدته له ابنته، ثم يعود إلى الكرنك فى اليوم التالى.

وعلى جدران معبدها بالدير البحرى نقشت حتشبسوت قصة مولدها من الملكة أحمس والاله آمون، وذلك بتشجيع من سنموت الذى أخذ على عاتقه أن يروج أسطورة قوتها شبه الآلهية. كان المصريون يعتبرون جميع الفراعنة الذين يجلسون على العرش أنهم أبناء الاله من أم إنسانية، وأخيرا استطاعت حتشبسوت أن تحصل على أمنية طالما تمنتها بعد أن تفتق عنها خيالها الصخب. لقد أمرت أن ترسم مع أمها أحمس فى سلسلة من الرسوم تمثل مولدها الأسطورى وهى فى هيئة ولد بدلا من أن تكون على هيئة بنت، كما نراها أيضا فى نقوش المسلة على صورة شاب وليس على صورة فتاة.

ومع هذا فقد كانت امرأة كاملة الأنوثة، وترى ذلك بوضوح فى تقاطيع وجهها وعينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين وذقنها الصغير. وكانت شأنها كشأن كل نساء طيبة تظهر عناية بتقديم احترامها لحتحور إلهة الحب والجمال التى كان يرمز لها بالبقرة، وكان الهيكل الجانبى من معبد الدير البحرى مقاما للالهة حتحور وأعمدته ذات تيجان حتحورية، وكان مركزا لعبادة هذه الالهة التى كان يأتى إليها الناس فى كل يوم ومعهم قرابينهم.

وبفضل ما قام به الأثريون من عمل متسم بالصبر والمهارة استطعنا أن نعرف ماذا كان يحدث فى ذلك الهيكل ؟ وكأننا نعيش مرة ثانية مع أهل ذلك الزمان. فقد كان الناس يحضرون معهم جميع أنواع ما كان فى حيازتهم الشخصية لتقديمه للآلهة ، ... شباك السمك، وأمشاط، وأطباق مغطاة بطبقة من الفيانس الأزرق ملأى بالفواكه والزهور ...

أما الذين لم يكن فى استطاعتهم احضار قرابين معهم فقد اكتفوا بتقديم عقود من الخرز أو تماثيل رمزية صغيرة من الفخار على صورة البقرة، كانوا يشترونها من أحد التجار الذى افتتح حانوته فى مكان ذى موقع مناسب خارج أسوار المعبد.

وكثيرا ما كانت تتراكم هذه القرابين فوق بعضها البعض فى داخل الهيكل فكان الكهنة يضطرون من آن لآخر إلى نقلها بعيدا لإخلاء المكان لغيرها، وكانوا يرمونها فوق كومة من الرديم خارج الهيكل. وفى هذا المكان بقيت تلك الأشياء آلافا من السنين، وكان بعضها مكسوا والقليل منها سليما، حتى كشفت عنها معاول العمال المحدثين فى عصرنا الحاضر.

وكشف العمال أنفسهم الذين كانوا يعملون فى تنظيف الدير البحرى عن أسرار أخرى أيضا، أسرار لم يكن أصحابها الذين قاموا بالاشتراك فى قصتها فى عهد حتشبسوت يعرفون إلا جزءا منها أو ربما لم يعرفوا شيئا منها على الإطلاق. لقد كانت سلطتها كامرأة تشغل عرش الفراعنة، لا تعتمد على صفاتها الشخصية الممتازة فحسب، ولكنها تعتمد أيضا على مناصريها وبخاصة سنموت .

ولكن هذا الرضا وتلك الحظوة لم تستمرا إلى الأبد فبعد الاحتفال بالعيد غضبت عليه وربما تكون قد أعدمته إذ لم يدفن فى مقبرته التى أعدها لنفسه

على مقربة من معبد الدير البحرى وكانت حجرة الدفن فيها تحت ناووس معبد سيدته.

وفى الممرات الخفية المؤدية إلى حجرة الدفن دهش المكتشفون عند رؤية النقوش والألوان التى كانت تغطى جدران تلك المقبرة ، ومن الواضح أن سنموت قام بهذا العمل الجرىء المتسم بالغرور، وهو عمل مقبرة له تمر ممراتها تحت المعبد فى طى الكتمان، واستتر بعمل قبر رسمى آخر فى مكان ظاهر مناسب بين مقابر رجال البلاط الآخرين على سطح التل القريب، ولكن هذا القبر وجد خاليا أيضا .

وعندما كان الأثريون يعملون فى تنظيف معبد الدير البحرى عثروا على أدلة أخرى تثبت طموح سنموت وجرأته التى لا حد لها. لقد رسم صوره هو نفسه، فى هياكل الإله الداخلية فى أماكن لا يتيسر لأحد رؤيتها، وهو عمل يخالف تعاليم العقيدة الدينية مخالفة تامة ولم يسمع أحد بحدوث شىء مثله من قبل وكأنه أراد أن يشق طريقه إلى الجنة بركوبه خلسة فى سفينة الشمس التى تحمل ملكته شبه الآلهية إلى أفق الحياة الأخرى.

وقد دفع سنموت وفاءه واخلاصه لملكته ثمنا لاعتزازه بنفسه وطموحه، ولاشك أنها أحست بعد قتله أن أكبر سند لها قد زال من الوجود. واستمرت تحكم بعد ذلك خمس سنوات، ومن المحتمل أنها كانت أوقاتا مليئة بالخوف من تحوتمس وربما كانت وحيدة أيضا .

ماتت حتشبسوت عام ١٤٧٩ وهى فى سن الخامسة والخمسين، ولم تدفن فى الدير البحرى ولكنها دفنت مثل أبيها فى مقبرة خفية فى وادى الملوك. لقد حكمت بمفردها نحو سبعة عشر عاما دون أن تفقد شيئا من سلطتها ونشاطها تجاه بلدها الذى أحبته كل الحب.

وكانت مؤمنة بالآلهة ومخلصة لعبادتها، وعلى كتل من الحجر الرملى الأحمر عثر عليها فى معبد الكرنك، نرى المناظر الجنائزية لدفنها، ونرى تحوتمس الثالث الذى تزوج من وارثة العرش مريت رع حتشبسوت وأصبح فرعون للبلاد، نراه وهو يقدم القرابين إلى تمثالها.

كان عمله هذا واجبا مقدسا يتحتم عليه القيام به إذ ليس لدينا أية وثائق تشير إلى تصالحها قبل وفاتها، ومع ذلك فمن المرجح أنه أقام موكب جنازتها وأن ابنتها وأصدقاءها القدماء وكبار موظفيها كانوا مظهرين الحزن الحقيقى لوفاتها، ومن المحتمل أن يكون الكهنة قد أنشدوا عند وضع تابوت الملكة العظيمة التى كانت فرعون لمصر، بكل احترام فى الحجرة الملونة في آخر بيتها الأبدى، نشيدهم قائلين : «ما أسعدها تلك التى وصلت إلى الغرب عندما تصبح آمنة بين يدى الآلهة».

وبالرغم من أننا نستطيع أن نرى حتى الآن علي جدران مدرجات معبدها كثيرا من النقوش التى ذهبت عنها ألوانها فى ذلك المكان الموحش فى أحضان الصخر فإن ابتسامة أمها أحمس وصورة وجهها الذكى وفوقه لباس الرأس المعروف باسم تاج العقاب، وفى ذقنها تلك اللحية الصغيرة المستعارة مازالت تطالعنا كلها وهى فى أتم حالة من الحفظ، لأن يد التخريب لم تصل رليها. ومن المحتمل أن يرى الزائر وهو واقف يتطلع إليها صقرا يطير فوق رأسه أو سحلية ذات لون أزرق وأصفر تثب على حشرة أو يرى يربوعا يثب فيروع الزائر ويجعله يثب من مكانه.

إن هذه المخلوقات الحية التى تسكن الصحراء مازالت تعيش فى المنطقة بل هى حلقة تربط بين الزائر الحديث وبين الفتاة والمرأة التى عاشت وحكمت كفرعون قبل أن يولد المسيح بألف وخمسمائة سنة.

السيادة العالمية

وأقدم عقيدة للتوحيد

اخناتون

لقد ترك النفوذ الاجتماعى مدة العهد الإقطاعى فى مصر أعظم أثر له فى الدين والأخلاق كما فعل ذلك من قبل النفوذ السياسى أى الحكومة المصرية في عصر الأهرام. وكلا الأثرين كانا منحصرين فى القطر المصرى.

حقا إن عصر الأهرام قد اهتدى إلي فكرة - مبهمة نوعا - عن دولة إله الشمس ذات الاتساع الشاسع المدى، وخوطب إله الشمس فى «متون الأهرام» مرة باللقب الطنان «الذى لا حد له» . وأن عصر الأهرام كان قد أوجد، بالإدراك الاجتماعى الذى قام به أمثال «بتاح حتب» دولة للقيم الخلقية العامة، وفى إعطاء إله الشمس السيادة على مثل هذه الدولة دليل على أن المصريين كانوا قد بدأوا يسيرون بالفعل فى الطريق المؤدى إلى «التوحيد». كما أننا نتذكر أن نصائح الملك الأهناسى المجهول الاسم قد سارت بالمصريين شوطا بعيدا فى ذلك الطريق. وقد كان وقتئذ فى مقدور المصريين بما تصوروه من النظام الإدارى الخلقى العظيم، الذى أوجدوا له من قبل كلمة تدل عليه، أن يتقدموا نحو الوصول إلى المعرفة التامة للوحدانية.

ولكن على الرغم من ذلك قد بقى هذا النظام الخلقى فى عصر الأهرام فكرة قومية لم يمتد نظامها حتى يشمل العالم كله.

فقد كان إله الشمس يحكم مصر فحسب، حيث نجده فى أنشودة الشمس العظيمة بمتون الأهرام يقف حارسا على الحدود المصرية، فيقيم هناك الأبواب التى تمنع الأجانب من دخول مملكته المحروسة.

وكان إله الشمس فى عصر الأهرام أيضا قد بدأ عملية إدماج آلهة مصر الآخرين فى ذاته، وهى عملية استحالت حتى فى ذلك العصر السحيق إلى صورة قومية من العقيدة الحلولية القومية التى تقول بأن الإله يحل فى كل شىء، وبأن جميع الآلهة تستحيل فى النهاية من حيث الأشكال والوظائف إلى وحدة واحدة[1].

ولكنه مع تلك العملية وبالرغم من استمرارها طويلا، فقد تركت دولة ذلك الإله العظيم مقصورة على مصر. ولذلك كان هذا الإله بعيدا كل البعد عن أن يكون إلها عالميا.

والواقع أن المصريين ظلوا إلى ذلك العهد غير مدركين للفكرة العالمية، أى لفكرة الامبراطورية العالمية، التى يمكنهم أن يسيطروا عليها بحاكم دنيوى واحد.

ولكن تأثيرات البيئة المقصورة على حدود وادى النيل كانت قد امتدت إلى أقصى مداها، وإذا بمسرح الفكر والعمل ينفسح للقوة القومية، بتلك التوسعات الخارجية الرائعة. فإن اللاهوت الشمسى السريع الإندماج والتجاوب مع أحوال ذلك العالم الصغير المكون من وادى النيل، قد دل على أنه لا يقل حساسية وتجاوبا مع ذلك العالم الأكبر الجديد الذى وصل الأفق المصرى إلى مداه.

وإن توسع مصر الإمبراطورى شمالا وجنوبا، إلى أن شمل سلطان الفرعون الأقطار الآسيوية والأفريقية المجاورة، وكون منها أول امبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، لهو أبرز حقيقة فى تاريخ الشرق فى القرن السادس عشر قبل الميلاد. كما يعد توطيد تلك السلطة على يد «تحتمس الثالث» فى مدى عشرين سنة بما قام به من الغزوات فى آسيا، حادثا عظيما فى تاريخ

(١) عقيدة وحدة الوجود الحلول والاتحاد هذه العقيدة الكفرية انتحلها اليونان ثم الرومان ثم الهنود ثم النصارى وهى ليست من عقائد الشرائع السماوية ، ويتضح بذلك أن هذه العقيدة مأخوذة من الفراعنة بل سرقها محيى الدين بن عربى وكثير من الصوفية وحاولوا أن يلبسوها ثوباً اسلامياً.

العاهليات الحربية، نرى فيه لأول مرة فى تاريخ الشرق مدى ما تستطيعه القوات العاملة المنظمة لدولة عظيمة.

إذ أن تلك القوات بهجومها المتواصل على ممالك آسيا الغربية قد جعلت السيادة المصرية لا ينازعها منازع، من الجزر الإغريقية فسواحل آسيا الصغرى ومرتفعات أعالى نهر الفرات شمالا، إلي الشلال الرابع لنهر النيل جنوبا.

وقد ذكر ذلك القائد الحربى العظيم نفسه تلك الملاحظة التى اقتبسها آنفا عن إلهه، وهى التى قال عنه فيها:

«إنه يرى جميع العالم فى كل ساعة »

وإذا كان ذلك القول صحيحا فما ذلك إلا لأن سيف ذلك الفرعون كان قد مد سلطان إله مصر حتى نهاية حدود الإمبراطورية المصرية. بل إن «تحتمس الأول» قد أعلن قبل ذلك العهد بخمسين سنة أن ملكه يمتد «إلى نهاية ما تحيط به الشمس». وقد كان القوم فى عهد الدولة القديمة يتصورون أن إله الشمس هو فرعون ، ومملكته فى مصر، فلما اتسع نطاق المملكة المصرية وصارت عاهلية عالمية كان من المحتم كذلك أن يمتد سلطان الإله بهذا القدر. ولما كانت الملكية قد انبثت مظاهرها فى العقائد الدينية منذ زمن بعيد، فكان لابد للامبراطورية كذلك من أن تؤثر تأثيرا قويا فى الفكر الدينى.

ومع أن ذلك قد جرى بكيفية آلية لا تكاد تحس، فإنه كان مصحوبا باستيقاظ عقلى هز التقاليد المصرية القديمة من أساسها وجعل رجال ذلك العصر يفكرون فى عالم من التفكير أوسع أفقا من قبل. فقد مضى علىَ إله الشمس ألفا سنة وخمسمائة وهو فرعون مصرى، أى فرعون حاكم لمصر، ولكن بعد سنة ١٦٠٠ق.م. صار ذلك الفرعون سيدا على العالم المتحضر إذ ذاك.

وكان «تحتمس الثالث» الفاتح أول شخصية ظهرت لها نواح عالمية فى التاريخ البشرى، ويعتبر بذلك أول بطل عالمى. ومن ثم كان له تأثير عميق فى عصره، وتمثلت فكرتا السيطرة والامبراطورية العالميتين مجتمعتين بصورة ظاهرة ملموسة فى حياته.

وقد ظهرت آنئذ بوادر للعالمية فى لاهوت الدولة يرجع سببها المباشر إلى تلك التأثيرات التى أحدثتها شخصية «تحتمس الثالث» وأخلافه. وقد اضطرت مصر إلى الخروج من عزلتها العريقة فى القدم فى أحضان واديها الضيق والاشتراك فى العلاقات العالمية التى كان لابد أن يحسب لها فى لاهوت ذلك العصر حساب فعال، إذ أنها كما أوضحنا علاقات كان لإله الشمس بها صلة لا انفصام لها.

أما العلاقات التجارية التى كانت قائمة منذ أزمان سحيقة جدا فلم تكن كافية لإدخال العالم الخارجى فى دائرة التفكير المصرى بدرجة محسوسة. فقد كانت أطراف ممتلكات الآلهة محددة ومحصورا أقصاها في تخوم وادي النيل الخارجية، وذلك منذ زمن بعيد وقبل أن يصير العالم الخارجى مألوفا لسكان وادي النيل، فلم يكن فى مقدور المعاملات التجارية وحدها مع عالم أوسع من مصر أن يزحزح تقاليد البلاد عما كانت عليه.

فكم من تاجر رأى حجرا يسقط فى «بابل» لنائبه كما رأى مثله يسقط فى «طيبة» المصرية أيضا، ولكنه مع ذلك لم يخطر بباله، ولا ببال أى رجل آخر فى ذلك العصر العتيق، أن القوة الطبيعية التى تجذب الحجر الساقط هى واحدة في كلتا هاتين المملكتين اللتين تفصلهما مسافات شاسعة، إذ كان العالم فى الواقع وقتئذ لايزال بعيدا جدا عن زمن ذلك الصبى الراقد تحت شجرة التفاح، الذى كشف عن قوة عالمية وراء سقوط التفاحة.

وكم من تاجر فى ذلك العصر أيضا قد رأ« الشمس تبزغ خلف معابد «بابل» البرجية كما كانت تبزغ بين المسلات المتجمعة فى «طيبة»، ولكن تفكير ذلك العصر لم يكن قد وصل بعد إلى إدراك مثل هذه الحقائق ذات الأثر البعيد، وذلك بالرغم مما قاله «تحتمس» الفاتح عن إله الشمس :

« إنه يرى جميع العالم فى كل ساعة».

فإن العالمية التى تصورها أولا خيال رجال الامبراطورية المفكرين وكشفت لهم المجال العالمى الطبعى لدولة إله الشمس هى العالمية كما بدت فى السلطة العاهلية. أما التوحيد فليس إلا العاهلية فى الدين.

وعلى ذلك لم يكن من باب الحدس أو الصدفة أن نجد أن أول هذه التصورات حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م. فى عهد «أمنحتب» الثالث الذى كان أعظم أباطرة مصر أبهة ، إذ نجد أن توأمين من رجال العمارة هما «سوتى» و«حور» كانا يعملان فى «طيبة» لحساب الملك «أمنحتب» الثالث، وقد تركا لنا أنشودة للشمس على لوحة توجد الآن فى المتحف البريطانى. وهذه الأنشودة توضح لنا مدى ميل ذلك العصر والمجال الآخذ فى الاتساع والذى كان ينظر به رجال الامبراطورية إلى العالم مدركين مبلغ امتداد دولة إله الشمس التى لا حد لها.

وهذه الأنشودة الشمسية تحتوى على الأسطرالآتية الجليلة المعنى، وهى:

«إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك

ومصور دون أن تصور.

منقطع القرين فى صفاته مخترق الأبدية

مرشد الملايين[1] إلى السبل.

---

(١) من العجيب أن رقم المليون لم يكن معروفا لدى العرب الأوائل وكانوا يعبرون عن المليون برقم ألف ألف، وكانوا يعتبرون الألف أكبر الأرقام.

وعندما تقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر

(رغم أنك) فى ذهابك خفى عن أنظارهم.

إنك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ،

بل مئات الآلاف وملايين المرات.

وكل يوم تحتك (تحت سلطانك).

وحينما يأتى وقت غروبك،

فإن ساعات الليل تصغى إليك أيضا.

وعندما تجتازها فإن ذلك لا يكون نهاية كدك.

وكل الناس تنظر بواسطتك.

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم،

أنت أم نافعة للآلهة والبشر،

وأنت صانع مجرب ....

وراع شجاع يسوق ماشيته

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها.

....

هو الذى يرى ما خلق،

والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم

بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها،

مضىء فى السماء وكائن كالشمس.

وهو يخلق الفصول والشهور،

فالحرارة عندما يريد

والبرد عندما يشاء

فكل بلاد فى فرح عند بزوغه[1] كل يوم لكى تسبح له».

ومن الواضح فى مثل هذه الأنشودة أن مدى جولة إله الشمس الشاسع حول كل البلاد، وفوق كل شعوب الأرض، قد لقى فى النهاية اهتماما ... وأنه قد اتخذت الخطوة الأخيرة وهى مد سلطان إله الشمس على كل الأراضى والشعوب.

ولم تصل إلينا وثيقة أقدم منها مما أنتجه التفكير المصرى تضم تعبيرات صريحة يتمثل فيها ذلك التفكير كالتى نجدها هنا فى قوله :

«السيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم

بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها».

ومن الأمور الهامة أن نلاحظ أيضا أن ذلك الاتجاه كانت له علاقة مباشرة بالحركة الاجتماعية فى العصر الإقطاعى المصرى، إذ نجد أن النعوت التى نعت بها إله الشمس، نحو قوله :

«الراعى الشجاع الذى يسوق ماشيته

وهو ملجؤها ومانحها قوتها».

---

(١) صور لهم الشيطان أن الشمس إله بل إله الآلهة . قال تعالى : ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فلعنه الله على الشيطان وحزبه ، وقال تعالى : ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن﴾.

ترجع بنا إلى عهد النصائح التى وجهت إلى «مريكارع»، وهى التى سميت فيها الناس «قطعان الإله» كما ترجع بنا أيضا إلى أفكار «إبور» حيث يقول : «إنه راع لجميع الناس».

ومثله النعت الآخر الخطير الشأن وهو قوله : «أم نافعة للآلهة والبشر»، فإنه يحمل فى ثناياه فكرة مشابهة تشعر بالاهتمام ببنى البشر. أى أن النواحى الإنسانية فى سلطان إله الشمس، التى اشترك فى إيجادها بوجه خاص رجال الفكر فى العهد الإقطاعي، لم تختف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد.

وحدث أنه عندما خلف «أمنحتب الرابع» والده «أمنحتب الثالث» حوالى سنة ١٣٧٠ ق.م قام نزاع شديد بين البيت المالك من جهة وبين نظام الكهانة الذى كان علي رأسه الإله «آمون» (القمر) من الجهة الأخرى. وقد كان من الواضح أن ذلك الملك الشاب ينحاز إلى معاضدة جانب إله الشمس القديم ضد الجانب المنتصر للإله «آمون»، الذى كان رجال كهانته الطيبيون الأقوياء قد أخذوا يدعون إلههم الذى كان من قبل إلها محليا خامل الذكر باسم مركب هو «آمون رع»، مدللين بذلك على أنه صار موحدا مع إله الشمس «رع». وقد أخذ «أمنحتب الرابع» في باكورة حكمه يناصر فى حماسة فكرة جديدة للمذهب الشمسى ربما كانت نتيجة أريد بها التوفيق بين المذهبين.

وفى الوقت الذى كان فيه موقف البلاد المصرية السياسى فى آسيا فى غاية الحرج – أخذ الملك ينهمك بكل حماسة فى تعضيد التسلط العالمى لإله الشمس الذى أدركنا كنهه فى أيام والده. فأعطى هذا الملك إله الشمس إسما جديدا خلص به المذهب الجديد من التقاليد المحفوفة بخطر الشرك فى اللاهوت الشمسى القديم، فصار إله الشمس يسمى «آتون» ، وهو اسم قديم يطلق على الشمس المجسمة.

ومن المحتمل أن هذه التسمية لاتدل إلا على قرص الشمس فقط. وهذا الاسم الجديد ذكر مرتين فى أنشودة رجلى عمارة «أمنحتب الثالث» ، كما لاقى بعصض الإقبال فى عهد ذلك الملك، إذ قد سمى به أحد قواربه الملكية «أتون يسطع».

ولم يقتصر الحال على إعطاء إله الشمس إسما جديداً، بل منحه ذلك الملك الشاب كذلك رمزا جديدا. وأقدم رمز لإله الشمس كان الشكل الهرمى، كما كان يرمز له كذلك بالصقر، لأن الصقر من أسمائه.

علي أن هذين الرمزين كانا مفهومين بين سكان وادى النيل فقط، ولكن «أمنحتب الرابع» كان فى مخيلته وقتئذ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصرى. إذ أن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة متجهة إلى أسفل ، كل شعاع منها ينتهى طرفه بصورة يد بشرية.

وقد كان ذلك الرمز يشعر بالسيادة ويدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى وهى تضع أيديها فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية. هذا فضلا عن أن أشعة إله الشمس منذ عصر متون الأهران قد شبهت بذراعين له، واعتبرها الناس إذ ذاك نائبة عنه فى الأرض :

«إن ذراع أشعة الشمس قد رفعت مع الملك «وناس»

صاعدة به إلى السماوات».

وقد كان ذلك الرمز الجديد سهل الفهم لكل البشر الذين يسيطر عليهم الفرعون، كما كان معناه واضحا كل الوضوح حتى أنه كان فى استطاعة سكان نهر الفات أو رجال بلاد النوبة على النيل السودانى أن يدركوا عظم شأنه على الفور، بمعنى أن ذلك الرمز لم تقتصر دلالته على السيطرة العالمية فحسب، بل صار خليقا أن يكون رمزا عالميا إلى أقصى حد.

وكذلك بذلت بعض الجهود لتعريف القوة الشمسية التى رمز لها بتلك الصورة. فقد كان اسم إله الشمس الكامل : «حور أختى (حور الأفق) فرحا فى الأفق بإسمه (الحرارة التى فى «آتون»).»

وكان ذلك الإسم يوضع فى طغراءين ملكيين، مثل اسم الفرعون المزدوج (يعنى إسمه ولقبه). وهذا الوضع مأخوذ من مشابهة سلطان آتون لسلطان الفرعون، كما أنه برهان آخر يدل بوضوح على التأثير الذى أوجدته الامبراطورية المصرية بصفتها الحكومية فى مذهب اللاهوت الشمسى. غير أن الاسم الموضوع فى الطغراءين حدد لنا بوجه عام مقدار القوة المحسوسة الواقعية للشمس فى العالم الظاهر، ولم تكن له أى دلالة سياسية قط.

والكلمة المصرية القديمة التى ترجمتها في إسم ذلك الملك «حرارة» قد يكون معناها أحيانا «نورا» أيضا ، ومن الواضح أن ما كان الملك يعبده هو قوة الشمس التى نشعر بها على الأرض. وهذه النتيجة تنسجم مع العبارات العديدة التى سنجدها فى أناشيد «آتون»، وهى التى نرى فيها «آتون» نشطا باسطا أشعته على كل مكان فوق وجه الأرض.

ومع أنه من الواضح أن ذلك المذهب الجديد قد استقى وحيه من مدينة «هليوبوليس»، حتى أن الملك الذى اتخذ لنفسه منصب الكاهن الأعظم للإله «آتون» سمى نفسه «الناظر الأعظم»، وهو نفس لقب كاهن «هليوبوليس» العظيم، فإنه بالرغم من ذلك كان قد أزال معظم سقط المتاع القديم من الطقوس التى كانت تتألف منها ظواهر اللاهوت التقليدية، ولذلك نرانا نبحث عبثا في ذلك اللاهوت الجديد عن القوارب الشمسية، كما نرانا نبحث عبثا عن باقى الإضافات التى أدخلت فيما بعد على المذهب الشمسى مثل السياحة فى كهوف الأموات السفلية، وغير ذلك . فإنها كلها قد محيت منه جملة.

فإذا كان الغرض الذى رمت إليه حركة مذهب «آتون» هو التوفيق بينها وبين كهنة «آمون» فإنها قد فشلت، وقام بينهم ألد الخصام، الذى اشتد وبلغ الذروة عندما صمم الملك على أن يتخذ من «آتون» إلها واحدا للإمبراطورية المصرية ويقضى على عبادة «امون» .

وقد نتج عن ذلك المجهود الذى بذل لمحو كل الآثار الدالة على وجود «آمون» (ذلك الإله الحديث العهد) أن اتخذت إجراءات غاية في التطرف. إذ نجد أن الملك قد غير إسمه من «أمنحتب» (يعنى «آمون» مرتاح أو راض) إلى «إخناتون» (يعنى «آتون» راض).

وذلك الإسم الجديد الذى اتخذه الملك لنفسه هو ترجمة للاسم القديم للملك إلى ما يماثله فى المعنى فى مذهب «آتون». هذا من جهة، وكان اسم «آمون» من الجهة الأخرى يمحى أينما وجد فوق آثار «طيبة» العظيمة، حتى أن الملك ، تنفيذا لفكرته هذه، لم يحترم فى ذلك حتى ولا اسم والده الملك «أمنحتب الثالث».

مع أن الأمر لم يكن قاصرا على محو اسم «آمون»، بل تعداه حتى إلى كلمة الآلهة (بصفتها جمع إله) فكانت تمحى أيضا أينما وجدت (كأنه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه) ، وكذلك عوملت أسماء سائر الآلهة الآخرين معاملة «آمون» فكان مصيرها المحو.

وقد هجر الملك «إخناتون» طيبة برغم ما كان لها من السيادة والأبهة عندما وجد الارتباك فيها بالتقاليد اللاهوتية القديمة أكثر مما يحتمل، وأقام لنفسه حاضرة جديدة فى منتصف الطريق بين «طيبة» والبحر تقريبا، فى بقعة تعرف في وقتنا هذا باسم «تل العمارنة»، وسماها «أخيتاتون» (أفق آتون).

كما أسس فى بلاد النوبة مدينة لآتون مشابهة لها، ومن المحتمل جدا أنه أقام مدينة أخرى لذلك الإله فى آسيا، وبذلك صار لكل من الثلاثة الأجزاء

العظيمة التى تتألف منها الدولة وهى مصر والنوبة وسوريا مقر لمذهب «آتون» . وقد بنيت كذلك معابد أخرى لآتون فى أماكن مختلفة من مصر نفسها.

ولم يتم ذلك طبعا دون تأليف حزب قوى من رجال البلاط الملكى يمكن للملك به أن يناهض أولئك الكهنة المنبوذين، وبخاصة كهنة «آمون» . وقد أثرت الفتنة التى نتجت عن ذلك الانقلاب بلا شك تأثيرا خطيرا فى قوة البيت المالك. إذ كان حزب ذلك البلاط الذى نما إذ ذاك فى ظل «إخناتون» يعمل معه متضامنين على نشر ذلك المذهب الدينى الجديد، الذى يصح أن تعد قصته أروع الفصول وأكثرها إمتاعا فى تاريخ الشرق القديم.

يدلنا على ذلك ما بقى من نقوشه على جدران تلك المقابر التى نحتها الملك فى الصخر لأشراف رجاله قبالة الجبال المنخفضة التى تقع فى الهضبة الشرقية القائمة خلف تلك المدينة الجديدة.

والواقع أننا مدينون لمقابر مثل هؤلاء من أعوان الملك بمعلوماتنا عن مشتملات تلك التعاليم الهامة التى كانت تنشر فى تلك الآونة. وهى تحتوى على سلسلة أناشيد فى مدح إله الشمس، كما تحتوى على مديح إله الشمس والملك بالتبادل.

وهذه التعاليم تمدنا على الأقل بلمحة عن عالم الفكر الجديد، الذى نشاهد فيه ذلك الملك الشاب وأعوانه رافعين أعينهم نحو السماء محاولين بذلك إدراك مجالى الذات الإلهية فى بهائها الذى لا حد لقوته ولا نهاية، وهى الإلهية التى لم يعد سلطانها منحصرا فى وادى النيل، بل امتد بين جميع البشر وفى العالم كله.

ولا يمكننا الآن أن نأتى بشىء عن هذه السانحة أفصح من تلك الأناشيد، التى تقص علينا بنفسها شيئا عن تلك التعاليم. وأطول أنشودة بينها وأهمها هى

الآتية :

بهاء «آتون» وقوته العالمية

تشرق وتضىء

«أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت يا «آتون» الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميع وعظيم ومتلألىء ومشرق فوق كل أرض

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

أنت «رع». وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرضين)

وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب(الفرعون)

ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية (عنهم)».

الآتية :

بهاء «آتون» وقوته العالمية

تشرق وتضىء

«أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت يا «آتون» الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميع وعظيم ومتلألىء ومشرق فوق كل أرض

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

أنت «رع». وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرضين)

وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون)

ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية (عنهم)».

الليل والإنسان

«وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالموت

فيناموت فى حجراتهم	المزامير
ورءوسهم ملفوفة	تجعل ظلمة فيكون ليل فيه يدب كل
ومعاطسهم مسدودة	حيوان وعر
ولا يرى إنسان الآخر	المزمور (١٠٤-٢٠)

فى حين أن أمتعتهم تسرق

وهى تحت رءوسهم

وهم لا يشعرون بذلك.

الليل والحيوان

«وكل أسد يخرج من عرينه (ليفترس)

وكل الثعابين تنساب لتلدغ

والظلام يخيم

والعالم فى صمت

فى حين أن الذى خلقهم فى أفقه»

المزامير

الأشبال تزجر لتخطف ولتلتمس

من الله طعامها

المزمور (١٠٤-٢١)

النهار والإنسان

«الأرض زاهية حينما تشرق فى الأفق

وعندما تضىء بالنهار مثل «آتون»

فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد

وحينما ترسل أشعتك

تصير الأرضان (مصر) فى عيد

والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم

عند إيقاظك لهم

وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم

ثم يرفعون أذرعتهم تعبداً لطلعتك

ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العالم»

تشرق الشمس فتنصرف وفى

مأويها تربض. الإنسان يخرج إلى

عمله وإلى شغله إلى المساء

(المزمور ١٠٤-٢٢و٢٣)

النهار والحيوان والنبات

«وجميع الماشية ترتع فى مراعيها

والأشجار والنباتات تينع

والطيور فى مستنقعاتها ترفرف

وأجنحتها منتشرة تعبدا لك

وجميع الغزلان ترقص على أقدامها

وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط

تحيا عندما تضىء عليها»

النهار والمياه

«والسفن تقلع فى النهر صاعدة

أو منحدرة فيه على السواء

وكل فج مفتوح لأنك أشرقت

والسمك يثب في النهر أمامك

وأشعتك تنفذ إلي وسط البحر

الأخضر العظيم ».

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف

هناك دبابات بلا عدد

صغار حيوان مع كبار.

هناك تجرى السفن. لو يائان

هذا خلقته ليلعب فيه

(المزمور ١٠٤-٢٥و٢٦)

خلق الإنسان

«أنت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى يذرأ من البذرة أناسيا

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

ومهدئا إياه حتى لا يبكى

مرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته

وحينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته

فأنت تفتح فمه كلية

وتمنحه ضروريات الحياة»

خلق الحيوان

«وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة

فأنت تعطيه نفسا ليحفظه حيا فى وسطها

وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج منها

وهو يخرج من البيضة فى ميقاته (الذى قدرته له)

فيصيح ويمشى على رجليه حينما يخرج منها»

الخلق العالى

«ما أكثر تعدد أعمالك ما أعظم أعمالك يارب

إنها على الناس خافية كلها بحكمة صنعت

يا أيها الإله الأحد ملأنة الأرض من غناك

الذى لا يوجد بجانبه إله آخر (المزمور ١٠٤-٢٤)

لقد خلقت الأرض حسب رغبتك وحينما كنت وحيدا (لا شىء غيرك):

خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان،

وجميع ما على الأرض،

مما يمشى على رجليه،

وما فى علين مما يطير بأجنحته.

وفى الأقطار العالمية سوريا،

وكوش وأرض مصر.

فإنك تضع كل إنسان فى موضعه.

وتمدهم بحاجاتهم.

وكل إنسان لديه قوته

وأيامه معدودات.

والألسنة فى الكلام مختلفة،

وكذلك فى الكلام مختلفة،

وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم،

لأنك تخلق الأجانب مختلفين».

رى الأراضى فى مصر وخارجها

« أنت تخلق النيل فى العالم السفلى،

وأنت تأتى به كما تشاء

ليحفظ أهل مصر أحياء (كلمة أهل التى استعملت هنا مقصورة فى اللغة على أهل مصر).

لأنك خلقتهم لنفسك

وأنت سيدهم جميعا

وأنت الذى تنهك[١] نفسك من أجلهم.

وأنت رب كل قطر

و(أنت) الذى تشرق من أجلهم وأنت شمس النهار عظيم الافتخار.

وجميع الأقطار العالمية القاصية

أنت تخلق حياتها أيضا.

لقد وضعت نيلا فى السماء،

وحينما ينزل لهم يصنع أمواجا فوق الجبال

مثل البحر الأخضر العظيم،

فيروى حقولهم فى مدنهم.

ما أكرم مقاصدك يارب الأبدية.

ويوجد نيل فى السماء للأجانب.

ولأجل غزلان كل الهضاب التى تتجول علي أقدامها.

أما النيل فإنه يأتى من العالم السفلى لمصر».

فصول السنة

« أشعتك تغذى كل بستان (كلمة التغذية هنا تعنى تغذية الأم لطفلها).

وعندما تبزغ فإنها تحيا،

فهى تنمو بك.

أنت تخلق الفصول

---

(١) قال تعالى ﴿ لقد خلقنا السموات والأرض وماسنا من لغوب ﴾ أى مامسنا من تعب أو نصب

لأجل أن ينمو كل ماصنعت.

فالشتاء يأتى إليهم بالنسيم العليل،

والحرارة لأجل أن يذوقوا أثرك (أى أن يكون لها طعم لذيذ فى فمهم)».

السيطرة العالمية

« أنت خلقت السموات العلى لتشرق فيها

ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لاتزال وحيدا(لاشىء غيرك).

مضيئا فى صورتك أنت «آتون» الحى،

وبازغا وساطعا وذاهبا بعيدا وآيبا (فى الغدو والآصال).

أنت تخلق الملايين من الصور وحدك بنفسك:

من مدن وقرى وحقول وطرق عامة وأنهار وجميع العيون تراك تجاهها،

لأنك «آتون» (شمس) النهار فوق الأرض.

وحينما تغيب،

فإن جميع الناس الذين سويت وجوههم

لكى لا ترى نفسك بعد وحيدا

يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته.

ومع ذلك فإنك لا تزال فى قلبى».

وحى الملك

« ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك «إخناتون».

لقد جعلته عليما بمقاصدك وبقوتك».

الرعاية العالمية

«العالم يعيش بصنيع يدك، أنت الذى خلقتهم

فيحيا حينما تشرق

ويموت حينما تغيب،

لأن حياتك طول مدى نفسك

والناس يعيشون بواسطتك .

إن أعين الناس لا ترى إلا جمالك حتى تغيب،

وكل عمل يطرح جانبا

حينما تغيب فى الغرب.

وحينما تشرق ثانية

فإنك تجعل كل كف تنشط لأجل الملك

والخير فى أثر كل قدم،

لأنك خلقت العالم

وأوجدتهم لابنك

الذى ولد من لحمك

ملك الوجهين القبلى والبحرى

العائش فى الصدق، رب الأرضين

«نفر خبرو رع وان رع» (إخناتون)

ابن سرع» العائش فى الصدق، رب التيجان

«إخناتون» ذو الحياة الطويلة

(ولأجل) كبرى الزوجات الملكية محبوبته

سيدة الأرضين «نفر نفرو آتون» (نفرتيتى)

عاشت وازدهرت أبد الآبدين».

ويحتمل ألا تمثل هذه الأنشودة الملكية العظيمة إلا قطعة منتخبة أو سلسلة منتخبة من شعائر «آتون» كما كانت تقام من يوم لآخر فى معبد «آتون» بتل العمارنة.

ومما يؤسف له أن هذه الأنشودة لم تدون في تلك الجبانة الا بمقبرة واحدة فقط. وقد فقد منها نحو «ثلثها من جراء تعدى المخربين من الأهالى الحاليين، ولذلك لم يصلنا من الجزء المفقود إلا نسخة حديثة نقلت من غير اعتناء وعلى عجل منذ خمسين سنة (أى فى سنة ١٨٨٣م).

وأما المقابر الأخرى فقد كتبت نقوشها الدينية بالنقل عن الفقرات والجمل التى كانت شائعة الاستعمال وقتئذ، والتى تكون منها مجمل مذهب «آتون» كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر. وعلى ذلك يجب علينا ألا ننسى أن البقايا التى وصلت الينا عن طريق جبانة «تل العمارنة» من مذهب «آتون»، وهى مصدرنا الرئيسى ، قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكتبة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة، ممن لم يخرجوا عن كونهم أذنابا لحركة عقلية دينية عظيمة.

وفيما عدا هذه الأنشودة الملكية نجد أن أولئك الرسامين كانوا يقنعون فى كل مكان بالقطع والنتف، التى نقلت فى بعض الأحوال من تلك الأنشودة الملكية نفسها أو عن قطع أخرى، ويضعونها مرقعة فى هيئة أنشودة قصيرة، ثم ينقشونها كلها أو بعضها بدون أدنى تصرف، وهم يتنقلون من قبر إلى آخر.

ولما كانت المواد التى فى متناولنا عن ذلك المذهب ضئيلة إلى هذا الحد، مع أهمية الحركة التى أماطت لنا عنها اللثام، فإن تلك المعلومات الجديدة القليلة التى تمدنا بها تلك الأنشودة القصيرة، تعتبر ذات قيمة عظيمة.

وقد عزيت تلك الأنشودة فى أربع حالات إلى الملك نفسه – أى أن الملك يشاهد وهو ينشدها أمام «آتون» . وهنا نصها كما جاءت :

«أنت تشرق بجمالك يا «آتون» الحى يارب الأبدية

انك ساطع وقوى وجميل

وحبك عظيم وكبير

أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك

ولونك الملتهب يجلب الحياة إلى قلوب البشر

عندما تملأ بحبك الأرضين.

إيه أيها الآله الذى سوى نفسه بنفسه[١]

خالق كل أرض

وبارىء كل من عليها

حتى الناس وكل قطعان الماشية والغزلان

وكل الأشجار التى تنمو فوق التربة

فإنها تحيا عندما تشرق عليهم

وأنت الأب والأم لكل من خلقته

وعندما تشرق فإن عيونهم

---

(١) الله سبحانه وتعالى خالق وليس بمخلوق .

ترى بواسطتك

إن أشعتك تضىء كل العالم

وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب

عندما تشرق بصفتك سيدهم.

وعندما تغيب فى أفق السماء الغربى

فإنهم ينامون كأنهم أموات ،

رءوسهم ملفوفة بالغطاء

وتقف معاطسهم

حتى يعود شروقك فى الصباح

فى أفق السماء الشرقى.

وعندئذ يرفعون أذرعتهم إليك تعبدا ،

فإنك تجعل قلوب البشر تحيا بجمالك،

لأن الناس تحيا عندما ترسل أشعتك

ويكون جميع الكون فى عيد :

فالغناء والموسيقى وتهليل الفرح

تكون فى قاعة بيت بنبن

فى معبدك فى «أخيتاتون» مكان الصدق (ماعت)

الحائز لرضاك.

فيه يقدم لك الطعام والمئونة،

ويؤدى لك ابنك الطاهر احتفالاتك السارة.

يا «آتون» الحى فى مواكبه البهجة،

كل ما خلقته يطرب أمامك،

ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور.

آه يا «آتون» الحى المولود كل يوم فى السماء.

إنه يلد ابنه الجليل «وان رع» (إخناتون):

مثل نفسه دائما.

ابن «رع» اللابس جماله «نفر خبرو رع وان رع» (إخناتون).

فأنا ابنك الذى تسر به،

والذى حمل اسمك.

قوتك وبطشك يسكنان فى قلبى،

أنت يا «آتون» العائش علي الدوام...

لقد خلقت السماء العليا لتشرق فيها،

لكى تشاهد كل ما صنعته

عندما كنت لا تزال وحيدا (لا شىء غيرك).

آلاف الألوف من الأنفس موجودة فيك لتحفظها حية،

لأن مشاهدة أشعتك هو نفس الحياة فى المعاطس،

وجميع الأزهار تحيا وكل ما تنبت الأرض

يصير ناميا لأنك تشرق.

فهى نشوى أمامك،وجميع الماشية تطفر على أقدامها،

والطيور تطير فى المستنقع من الفرح،

وأجنحتها التى كانت مطوية تنتشر،

مرفوعة لآتون الحى تعبدا.

أنت يا خالق ....

ففى هذه الأناشيد نرى قوة عالمية ملهمة لم توجد من قبل ، لا في الفكر المصرى القديم ولا فى فكر أية مملكة أخرى. فهى تشمل فى مداها العالم كله. ويقول الملك إن الاعتراف بسيادة إله الشمس العالمية كان هو كذلك أمر عالمى، وإن جميع البشر يعترفون بسلطانه، وكذلك قال الملك عنهم فى لوحة الحدود العظيمة :

«إن آتون» خلقهم (لنفسه هو).فجميع الأراضي وأهل بحر إيجة يحملون

ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم إلى الذى

أوجد حياتهم والذى بأشعته تحيا البشر

وتستنشق الهواء».

فمن الواضح أن «إخناتون» كان يريد بذلك دينا عالميا، يحاول أن يحله محل القومية المصرية التى سبقته، وسارت عليها البلاد مدة عشرين قرنا مضت.

وبجانب تلك القوة العالمية، نجد كذلك أن «إخناتون» كان متأثرا تأثرا عميقا بأزلية إلهه. وكان الملك نفسه يتقبل - بسكينة واطمئنان - أنه نفسه مصيره للفناء، فنراه فى باكورة حكمه فى « تل العمارنة» يعلن التعليمات الدقيقة الخاصة بدفنه فيما بعد الموت، ويسجلها باستمرار فوق اللوحات التى أقامها

على الحدود المصرية، ولكنه مع ذلك كان يعتمد على علاقته الوثيقة بآتون ليضمن له شيئا من خلود إله الشمس، ومن أجل ذلك كان يحتوى لقبه الرسمى دائما - بعد ذكر إسمه- على النعت الآتى : «ذو الحياة الطويلة».

على أنه فى بداية كل شىء قد برأ «آتون» نفسه من الوحدة الأزلية - أى أنه الخالق لكينونة نفسه - إذ نجد فى إحدى لوحات حدود «تل العمارنة» العظيمة أن الملك يسميه هكذا :

«سورى المكون من مليون ذراع.

ومذكرى بالأبدية

وحجتى فى إدراك الأشياء الأبدية

وهو الذى سوى نفسه بنفسه بيده هو

والذى لا يعرفه صانع».

ونجد أن الأناشيد تبدى انسجاما مع هذه الفكرة وتميل إلى ترديد تلك الحقيقة القائلة :

«بأن خلق العالم الذى يلى ذلك قد حدث

حينما كان الإله لايزال وحيدا (لا شىء غيره)».

وتكاد الكلمات : «حينما كنت لا تزال وحيدا (لا شىء غيرك)» تكون نداء يردد فى تلك الأناشيد.

وهو الخالق العالمى الذي ذرأ كل أجناس البشر وميز بعضهم عن بعض فى لغاتهم وألوان جلودهم، ولا تزال قوته المنشئة مستمرة تأمر بالخروج من العدم إلى الحياة حتى من البيضة الجامدة.

ولم يظهر عجب الملك من قوة إله الشمس المانحة الحياة بشكل بارز فى أى مكان آخر أكثر مما نجده مذكورا بسذاجة فى تعبيره عن تلك المعجزة، التى تتمثل فى أنه داخل لحاء البيضة الذى يسميه الملك «حجر البيضة» - أى أنه فى هذا الحجر الذي لا حياة فيه- تجيب أصوات الحياة نداء أمر «آتون» فيخرج مخلوق حى بعد أن أنعشه النفس الذى يمنح إياه (ذلك الإله).

وتلك القوة المانحة الحياة هى مصدر الحياة والزاد الدائم، والواسطة المباشرة لها هى أشعة الشمس التى تجلب النور والحرارة إلى الناس. وهذا الإدراك المدهش لقوة الشمس بصفتها منبع كل الحياة فوق الأرض يردد باستمرار دائم، إذ نرى الأناشيد تميل إلى الإمعان فى ذكر أن أشعة الشمس قوة عالمية عتيدة على الدوام :

«أنت فى السماء ولكن أشعتك فوق الأرض

أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم

أشعتك فوق ابنك المحبوب.

ذلك الذى يجعل بأشعته الإبصار كاملا

إن مشاهدة أشعتك هى نفس الحياة فى المعاطس

وطفلك (يعنى الملك) الذى ولد من أشعتك

لقد وسوتيه (يعنى الملك) من أشعة نفسك.

أشعتك تحمل مليونا من الأفراح الملكية

وحينما ترسل أشعتك فإن الأرضين

تكون فى فرح

أشعتك تشمل الأرضين وحتى كل ما صنعته

وسواء أكان فى السماء أم فى الأرض فإن كل الأعين تشاهده دائما

وهو يملأ (كل الكون) بأشعته

ويجعل كل البشر يعيشون».

كما أن اعتماد مصر فى حياتها على النيل بداهة جعل من المستحيل تجاهل ذلك المنبع الحيوى فى عقيدة الملك «إخناتون» ، والواقع أنه لا شىء يكشف لنا بوضوح قيمة عقيدة «إخناتون» وميله إلى الاعتماد على العقل، أكثر من أنه محا بلا تردد طائفة الأساطير والتقاليد التى كانت محترمة والتى كانت تقول بأن النيل هو الإله « أوزير» عدة أزمان. ثم نسب الفيضان فى الحال إلى قوى طبيعية يسيطر عليها ذلك الإله الذى يعبده، وهو الذى خلق- بمثل ذلك الإهتمام- للبلاد الأخرى نيلا آخر فى السماء.

وقد تجوهل الإله «أوزير» كلية ، فلم يذكر قط فى كل الوثائق الإخناتونية، بل ولا فى أى قبر من قبور « تل العمارنة».

بهذه الآراء الأخيرة ينتقل تفكير «إخناتون» إلى ما وراء الإدراك المادى المحض لنشاط الشمس فوق الأرض، ويقدر مبلغ إهتمام «آتون» الأبوى بجميع المخلوقات.

وهذا التفكير هو الذي يرفع من شأن الحركة التى قام بها «إخناتون» إلى حد بعيد فوق كل ما كانت قد وصلت إليه ديانة قدماء المصريين أو ديانات الشرق بأجمعه قبل ذلك الوقت. فقد كان إله الشمس فى نظر «إبور» راعيا شفيقا.

كما كان الناس فى نظر «مريكارع» - كما سبق ذكره أيضا- قطعانه التى من أجلها صنع الهواء والماء والطعام. ولكننا نجد أن «إخناتون» يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يقول لإله الشمس : «أنت أب وأم لكل ما صنعت». وهذا

التعليم هو الذى مهد الطريق لكثير من التطور الذى ظهر فى الديانة فيما بعد حتى إلى عصرنا الحالى.

فكان جميع العالم الحى، فى نظر تلك الروح الحساسة التى كانت تدب فى نفس ذلك الخيالى المصرى، يملؤه شعور قوى بوجود «أتون» مع التقدير لشفقته الأبوية. فمستنقعات السوسن، بأزهارها النشوانة التى تينع بإشعاع «أتون» الأخاذ ، وطيورها التى تنشر أجنحتها تعبدا «لأتون» الحى، والماشية التى تطفر فرحة فى ضوء الشمس، والسمك الذى يثب فى النهر مرحبا بالنور العالمى الذي تنفذ أشعته» حتى فى وسط البحر الأخضر العظيم، «كل أولئك تكشف لنا عن مدى إدراك «إخناتون» لذلك الوجود العالمى للإله وسيطرته على الطبيعة ، وعن إدراك باطنى لذلك الوجود عند كل المخلوقات.

وهذا التقدير لتجلى قوة الله فى العالم الحسى هو مثل الذى نجده بعد ذلك العهد بنحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة فى المزامير العبرية، ومثل ما جاء على لسان شعراء الطبيعة بيننا منذ عصر «وردزورث» . ومن الظاهر أن أعمق المصادر لقوة تلك الثورة العظيمة - بالرغم من أصلها السياسى - يرجع إلي اعتمادها على التأمل فى عالم الطبيعة.

كما نراه فى الحض على «تأمل سوسن الحقول». ولأن «إخناتون» كان رجلا مأخوذا بالاله، فقد انقاد عقله بحساسية وإدراك مدهشين إلى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الإله. فقد كان مأخوذا بجمال النور الأبدى العالمى، ولذلك نرى أشعته تغمره فى كل أثر صور عليه من آثاره التى بقيت لنا. واقتصر فى ذلك على شخصه وعلى الملكة وأولاده، لأنه كان يدعى لنفسه علاقة مع إله لا يشاركه فيها أحد. فهو الذى يدعو ربه بقوله :

« ليت عينى تقران بمشاهدته يوميا

« حينما يشرق فى بيت «آتون» هذا ويملؤه

هو بأشعته هذه - هذا الجميل فى حبه-

ويرسلها علىّ فى حياة راضية أبد الآبدين».

ويمرح الملك في ذلك النور، الذي وحده أكثر من مرة مع الحب، كما هو الحال هنا، أو مع الجمال باعتباره البرهان الظاهر الدال على وجود الإله، وذلك بنشوة قل أن يكون لها نظير، وفرح يبلغ حد الوله كالذى كانت تشعر به روح كروح «رسكن» عندما كان ينعم النظر فى النور، فقد وصف «رسكن» النور وهو يسطع فوق المناظر الطبيعية الجميلة، قال :

« النور المتنفس الحى المبتهج

الذى يشعر ويتسلم ويفرح ويعمل

ويختار شيئا وينبذ آخر

ويبحث ويجد ويفقد ثانية

متنقلا من صخرة إلي صخرة

ومن ورقة شجر إلى ورقة

ومن موجة إلى موجة

متوهجا أو بارقا أو متلألئا

بحسب ما يصيب أو (كما فى أقدس مظاهره) يكون ممتصا ساتراً لكل شىء فى كمال سكونه العميق،

وعندئذ نراه يفقد ثانية فى حيرة وشك وظلمة

أو يمحى ويختفى واقعا فى حبائل الضباب الجارف

أو يذوب في الهواء مكتئبا،

ولكنه – سواء أكان متأججا

أم خافتا، لامعا أم ساكنا–

هو النور الحي، الذي يتنفس في أعمق سكونه،

وهو النور الذي ينام ولكنه لا يموت أبداً»

فنجد في هذا الوصف الافتتان الحديث ببهجة النور، وهو الإنجيل الحقيقي لجمال النور، الذى كان أول مبشر به هو ذلك الخيال الوحيد «إخناتون» الذى عاش فى خلال القرن الرابع عشر ق.م.، وقد كان من الجائز كذلك فى نظر «إخناتون» أن النور ينام، كما يتضح من قوله : «يذهب خالق الأرض ليستريح فى أفقه»، غير أنه كان (فى نظره كما كان فى نظر «رسكن») «ينام ولكن لا يموت قط».

وقد نجح الأستاذ «زيته» فى ترجمة فقرة مهشمة فى الأنشودة الكبرى فأظهر معناها بأنه بالرغم من أن الظلمة قد خيمت والناس قد نامت فإن «إخناتون» يمكنه أن يشعر به، حيث يقول « ومع ذلك فإنك لاتزال فى قلبى».

فتلك الناحية من حركة «إخناتون» تدل إذن على أنها إنجيل الجمال والرأفة في نظام الطبيعة، وإدراك لرسالة الطبيعة إلى روح الإنسان، مما جعلها تعتبر أقدم النهضات التى نسميها«الرجوع إلي الطبيعة»، وهى التى ظهرت فى إنتاج أمثال الفنانين «ملت» و بربيزون ، أو فى آراء «وردزورث» وأخلافه. فالرسامون في ذلك الوقت كانوا يصورون حياة المستنقعات البرية بروح جديدة تختلف عن روح السرور الهادئ الذى صور به رسامو «مصاطب الأهرام»، تلك الصور الهادئة التى تمثل نزهات الأشراف فى حقول البردى، مما تتحلى به جدران مزارات قبورهم بالجبانة المنفية الكائنة «بسقارة».

وأما الصور التى رسمت فوق الجص وتزين رقعة قاعة قصر «إخناتون» ذات الأعمدة «بتل العمارنة»، فمفعمة بروح مرح جديدة تسود الحيا، وتشعرنا عند رؤيتها بشىء من العاطفة القوية التى أثارت يد الفنان وهو يرى بعينى ذهنه الثور الوحشى يقفز فى أدغال البردى ضاربا برأسه نحو الطيور الهلوعة المشقشقة فوق يرا ع المستنقع كأنها تؤنب ذلك الطفيلى الفظ الذى ينزل الضرر بأوكارها.

ولكن مما يؤسفنا أشد الأسف أن تلك النقوش الفاخرة التى كانت تتألق فيها الحياة والحركة ، والتى طالما تمتعت بهما أعين الناظرين فى عصرنا الحالى «بتل العمارنة» ، قد دمرت إلى الأبد بأيدى أولئك المخربين الأحداث من أهالى القرى المجاورة لبلدة « تل العمارنة».

وهذه الروح الجديدة - فى عصر إخناتون- التى استمدت إلهامها من جمال الطبيعة وفيضها، كانت كذلك ذات حساسية شديدة لحقيقة الحياة الإنسانية والعلاقات البشرية، دون تأثر بشىء من العرف أو التقاليد، إذ مثلت بدون تكلف أو تحفظ علاقات «إخناتون» الطبيعية البهيجة بأسرته،

وظهر ذلك حتى فوق الآثار العامة. فقد عثر على تمثال صغير غير تام الصنع فى مصنع أحد المثالين الملكيين «بتل العمارنة»، لم يقتصر فيه صانعه على تمثيل الملك جالسا وابنته الصغيرة فوق حجره وهو يضمها كما يضم الأب الملكى أميرة صغيرة، بل مثل الفرعون وهو يقبل ابنته الصغيرة كما يفعل ذلك أى والد معتاد.

وليس من الصعب على الإنسان أن يتصور الحنق والهلع اللذين أثارتهما مثل تلك الصورة الملكية فى شعور طائفة المحافظين على التقاليد فى عصر «إخناتون»، وهم أولئك الأشراف من رجال التقاليد فى البلاط الملكى الذين يرون

وجوب تصوير الفرعون كما جرى تصويره من ألفى سنة فى هيئة خضرة سامية جالسة فى جلال جامد، أى فى صورة شخصية رزينة مقدسة لا يشوبها أى مظهر من مظاهر المشاعر البشرية أو جهات الضعف الإنسانية.

وقد بقى محفوظا لنا للآن ذلك الكرسى الجميل الذى جىء به من قصر «تل العمارنة» وأودع فى مقبرة «توت عنخ أمون»، وهو مزين بمنظر يظهر فيه الملك الشاب جالسا فى استرخاء بحالة تدل على التبسط وعدم التكلف، إذ نشاهد احدى ذراعيه ملقى بها فى استهتار فوق ظهر كرسيه، وأمامه الملكة الشابة الجميلة واقفة وفى يدها إناء صغير من العطور تصب منه برشاقة أنيقة بضع نقط من الطيب فوق ملابس زوجها الملك. ونجد هاهنا لأول مرة فى تاريخ الفن منظرا موضوعه العلاقات الإنسانية، اتخذ فيه الفن المعبر الحياة الإنسانية موضعا لبحثه. وهذان مثلان فقط من بين الأمثلة العديدة التى يمكن ذكرها للاستدلال على شخصية «إخناتون» القوية واستعداده لطرح قيود التقاليد بغير أدنى تردد فى سبيل تأسيس عالم من الأشياء على حقيقتها الفطرية السليمة.

ولذلك نرى من المهم أن نلاحظ أن «إخناتون» كان رسولا لكل من عالمى الطبيعة والحياة الإنسانية. فكان مثله فى ذلك مثل «عيس» استقى دروسه من سوسن الحقل وطيور الهواء وسحب السماء من جهة، ومن المجتمع الإنسانى الذى يحيط به من جهة أخرى، كما يتمثل فى مثل قصة «الابن المبذر» أو «الطيب السامرى» أو «المرأة التى أضاعت قطعة نقودها». وعلى ذلك النمط استقى ذلك الملك[١] المصرى القديم الثائر تعاليمه من التأمل فى مشاهد عالمى الطبيعة والحياة الإنسانية معا.

ومع أن الفن المعبر عن ملك الحركة الثورية التى كان زمامها فى يد «إخناتون» قد وجد مرتعا جديدا فى حياة الإنسانية، فقد كان هناك شىء كثير

(١) فى الكتاب الرسول.

لم يكن فى مقدور «إخناتون» أن يتجاهله من التجارب المصرية عن المجتمع البشرى. فقد قبل «إخناتون» عن طيب خاطر المذهب الشمسى الموروث الذى ينطوى على نظام خلقى عظيم.

وإذا كنا قد خصصنا فى هذا المختصر التاريخى للأخلاق عند قدماء المصريين جزءا لا بأس به عن «عقيدة التوحيد» الإخناتونية الثورية[1]، فما ذلك إلا لأن تلك الحركة التوحيدية هى ذروة التقدم القديم للنظام الخلقى الذى نودى به على لسان المفكرين المصريين القدماء الذين عاشوا فى عهد الأهرام وأسسو مملكة عظيمة من القيم الخلقية العالمية التى تتمثل فى تلك الكلمة الشاملة الجامعة «ماعت» (العدالة) التى أوجدها إله الشمس فى «هليوبوليس». وقد بنى هذا التوحيد الجديد على أسس ثلاثة :

أولها : كما رأينا أنه كان سياسيا، حتى أن اسم إله الشمس الجديد كان يوضع فى الطغراء الفرعونى باعتباره شعارا ملكيا مزدوجا.

والثانى : اعتبار سلطان إله الشمس وسيطرته العالمية قوة طبيعية ملموسة حاضرة فى كل مكان تتمثل فى حرارة الشمس ونورها.

والثالث: كان التطور المنطقى لمذهب «هليوبوليس» الخاص بالنظام الخلقى، الذى كان أقدم من عهد «إخناتون» بنحو ألفى سنة. بقى علينا الآن أن نفحص آخر هذه الأسس الرئيسية التى قام عليها التوحيد عند «إخناتون». على أننا عند هذه النقطة نشعر بقلة ما لدينا من المصادر المدونة وضآلتها، وإن كانت هذه المصادر النادرة التى بقيت لنا من ذلك العصر تكشف لنا عن مدى التقدم فى تفكير ذلك الملك الشاب خلال نصف الجيل الذى حكمه.

---

(١) استبدال الآلهة المتعددة بالشمس ليس توحيداً حقيقيا وإنما قد يكون توحيداً فى المعنى اللغوى ، وبعض المؤرخين يرون أن اخناتون هو النبى إدريس وأن رسالة قد حرفت.

ولا يمكن الباحث أن يظن أن حركة حية نامية ذات تقدم مثل الحركة التى قام بها «إخناتون» لم تكن قد أنتجت أبحاثا دونت فيها تعاليمه، بل إن لدينا من الدلائل ما يثبت وجود مثل تلك الأبحاث. ففى مقابر «تل العمارنة» التى ولع أصحابها من أشراف رجال البلاط الأخناتونى بأن يرسموا فوق جدرانها ما كانت عليه علاقاتهم مع مليكهم، نجد أنهم كانوا يشيرون باستمرار إلى ذلك المذهب الجديد.

ولم يكن لديهم للتعبير عنه إلا كلمة واحدة وهى كلمة «التعليم»، وهذا التعليم منسوب للملك وحده. ولا يمكن أن يتسرب إلينا شك فى أن ذلك التعليم هو الاسم العام للبيان الرسمى لمذهب «إخناتون» الذى كتب طبعا فى رسالة من نوع ما على أوراق البردى.

علي أنه بعد سقوط «إخناتون» لم يترك أعداؤه حجرا واحدا لم يقلبوه لإزالة كل أثر باق يدل على حكمه المقوت عندهم، وقد دمروا بطبيعة الحال مخطوطات الملك هذه المدونة على البردى. وأما معلوماتنا عن تلك الحركة من ناحية العقائد الدينية فهى مستقاة بأجمعها من نتف وقطع وقعت لنا عرضا، وبخاصة تلك الأناشيد التى زين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم.

وحينما نقرأ أنشودة «آتون» العظمى لأول مرة يدهشنا أن مثل هذه الأنشودة، التى تعبر عن الوحى الدينى، لا تشتمل إلا على إشارات قليلة عن موضوع الأخلاق والسلوك الإنسانى، وهو الذى كان قد احتل مكانة بارزة - كما نعلم- بين عناصر الديانة الشمسية الهليوبوليسية التى تضرب إليها حركة «إخناتون» الدينية بوشائج قوية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن القوة الرئيسية التى حركت روح «إخناتون» كانت العاطفة.

والواقع أن ثورة «إخناتون» كانت فى روحها أولا وقبل كل شىء عاطفية

بدرجة قوية، نجد هذه الحقيقة ظاهرة جلية فى الأناشيد، كما نجدها كذلك بارزة جدا فى الفن. فعندما يرسم لنا أحد فنانى «تل العمارنة» صورة «إخناتون» أو أحد رعاياه وهو يتعبد، رافعا ذراعيه تضرعا إلى إله الشمس، فإن وسائله العاطفية فى مثل تينك الذراعين المرفوعتين تبلغ فى شدة جاذبيتها روعة ذراعى «إلونورادوز» حينما تبسطهما باستعطاف لاستقبال محبوبها «أرماندو» .

فالذى كان يعبده «إخناتون» هو جمال إله الشمس وفيضه. وهذه العاطفة هى التى نقلتها إلينا أناشيد «تل العمارنة». فهى لذلك لا تحتوى على لاهوت أو خلقيات اجتماعية. وبالرغم من ذلك فإنه من الواضح تماما أن «إخناتون» قد قبل قبولا شاملا اعتناق الخلقيات الهليوبوليسية، التى كانت قد بلغت الذروة فى سموها، بل أنه فى الواقع أبرز النظام الخلقى للتعاليم الشمسية القديمة فى شكل أوضح مما كان عليه فى أى وقت، كان قبل حكم «إخناتون».

على أن علاقة حركة «إخناتون» هذه الوثيقة باللاهوت الهليوبوليستى ظاهرة فى كل نواحيها . فقد كان توحيداً للسلالة الملكية بسلالة إله الشمس على يد كهنة «هليوبوليس» فى متون الأهرام، وما ترتب عليه من اعتبار كل فرعون ابنا لإله الشمس، قد نقل إلى الإله «رع» صفات الحكم الكريمة التى تشبع بها فراعنة العهد الإقطاعى.

ففى ذلك الحين كان الفرعون قد صار «الراعى الطيب» أو «راعى الماشية الطيب». وهذه الصورة التى تنطق بعطف الملك الأبوى وحمايته لرعاياه قد نقلت إلى «رع»، وبذلك اكتسب «رع» لنفسه، بشكل مدهش، صفات إنسانية وعطفا أبويا نتيجة لذلك التطور الذى حدث فى تصوير الملكية فى العهد الإقطاعى.

وبذلك كانت تلك القوى الاجتماعية التى أوجدت هذا المثل الأعلي للملكية، هى المؤثرات النهائية التى -بمعونة الملكية- قد زادت من سلطان «رع» وأكسبته

صبغة إنسانية ، بعد أن كان مركزه قبل ذلك سياسيا لايخرج عن كونه فكرة آلية مهملة. فكأن هذه الصفة الإنسانية التى كسبها «رع» كانت قريبة من التى كان ينشدها «أوزير» نفسه.

وكانت التعاليم الإخناتونية منجذبة بكليتها نحو هذا الميل الذى ينعطف إليه المذهب الشمسى، إذ قد عثرنا على أنشودة للشمس من عهد والد «إخناتون» سمى فيها إله الشمس «الراعى الشجاع الذى يرعى قطعانه»، وهذه إشارة تربط بوضوح مذهب «آتون» بالحركة الاجتماعية الخلقية التى ظهرت فى العهد الاقطاعى.

وحينما نعيد إلى ذاكرتنا الآن الأصل الهليوبوليسى لماعت (الحق، الصدق، العدالة) التى صارت تمثل في إلهة، هى بنت إله الشمس، يجب أن نلاحظ ماجاء فى كتاب الموتى من أن جماعة الآلهة الذين يجلسون فى قاعة «ماعت» لا يوجد بأجسامهم إثم ولا بهتان وأنهم يعيشون على الصدق «ماعت»، وهناك يؤكد الميت براءته لأولئك الآلهة بقوله : «إنى أعيش على الصدق وأتزود من صدق (أو عدالة)قلبى».

فهذا المذهب الشمسى الذى كان يشد أزره أولئك الآلهة فى «هليوبوليس» قد اعتنقه الآن «إخناتون» بجوارحه، حتى أنه كان على الدوام يذيل إسمه الملكى الرسمى فى كل آثار الدولة العظيمة بهذه الكلمات : «العائش على الصدق (ماعت)»، وهذا النعت الهام الذى ألحق باسم «اخناتون» جعله الممثل الرسمى والمعاضد للنظام الخلقى القومى العظيم، الذى تصوره كهنة المذهب الشمسى قديما فى «هليوبوليس» فى عهد يرجع تاريخه إلى عصر الأهرام، وألبسه المفكرون الاجتماعيون والرسل فى العهد الإقطاعى المصرى أهمية خلقية فاقت ماكان عليه فى أى زمن من قبل.

فإذا أعدنا إلى ذاكرتنا ما كان يدعيه «إخناتون» من التسلط على سائر العالم بلا برهان، ظهر لنا أن ما كان يرمى إليه من وراء إضافته تلك الكلمات إلى اسمه الملكى إنما هو امتداد سلطان النظام الخلقى القديم القومى حتى يصير نظاما مسيطرا على سائر العالم الدولى العظيم الذى كان هو ...

أن سيطرة مملكة الشمس القديمة للقيم الخلقية، وقد امتدت إلى حدودها العالمية المنطقية، وأن «التوحيد» الذى كان منطويا فى ثنايا تعليم كهنة هليوبوليس قد نطق بهما، «إخناتون» نطقا لا إبهام فيه ولا خفاء.

وتمشيا مع هذه الحقيقة قد سمى «إخناتون» عاصمة ملكه الجديدة فى تل العمارنة «مقر الصدق (ماعت)»، كما جاء فى الأنشودة القصيرة. وقد كان أتباعه على علم تام باعتقاده المتين فى «ماعت». ولذلك كان رجال البلاط الملكى يعظمون «الصدق» كثيرا، إذ يقول أحد أعلام أعوان الملك، وهو «آى» الذي قام بخلع الملك «توت عنخ آمون» فيما بعد عن عرشه:

«إنه (يعنى الملك) أحل الصدق فى جسمى

وإن الذى أمقته هو الكذب

وأنى أعلم أن «وان رع» (يعنى إخناتون) يمرح

فيه (يعنى الصدق).»

ثم يؤكد نفس هذا الرجل أن إله الشمس : «قلبه مرتاح للصدق وأن الذي يلعنه هو الكذب».

كما يذكر لنا موظف آخر فوق جدران قبره فى « تل العمارنة» :

«سأتكلم لجلالته (لأنى) أعلم أنه يعيش فيه (أى فى الصدق)

وأنى لا أفعل ما يكرهه جلالته لأن الذى أمقته

هو حلول الكذب فى جسمى

ولقد قررت الصدق لجلالته لأنى أعرف أنه يعيش فيه.

إنك «رع» والد الصدق ....

وأنى لم آخذ رشوة للكذب

كما أنى لم أقص الصدق لأجل الرجل العسوف».

ويجب أن نذكر هنا مرة ثانية - كدليل هام على تفانى «إخناتون» فى الصدق - أنه لم يقصر فضيلة الصدق على السلوك الشخصى فحسب، بل أدخله كذلك فى ميدان الفن، حيث صارت له فيه نتائج ذات آثار بارزة فى التاريخ.

وعلى ذلك كان «رع» لا يزال فى ذلك الانقلاب الذى قام به «إخناتون» المنشىء المعاضد للصدق أو الحق (ماعت)، أى لذلك النظام الخلقى والإدارى كما كان الحال منذ أكثر من ألفى سنة مضت. وإذا كنا لم نسمع عن حساب الآخرة فى مقابر «تل العمارنة»، فمن الواضح أن ذلك إنما يرجع إلى نبذ سحابة الآلهة وأنصاف الآلهة وعلى رأسهم «أوزير»، ممن كانوا يؤلفون هيئة المحاكمة فى حساب الآخرة بشكلها الموضح فى كتاب الموتى.

فأولئك الآلهة قد بادوا الآن، واختفى - على ما يظهر- منظر المحاكمة التمثيلى باختفائهم، وإن كان من الواضح أن المستلزمات الخلقية فى المذهب الشمسى - الذى نشأت فيه فكرة المحاكمة فى الآخرة وانتشرت - لم تنته المطالبة بها فى التعاليم الإخناتونية ولم تفتر.

وكذلك الحملة التى قام بها الكهنة علي عالم الأخلاق بالعوامل السحرية الآلية لضمان براءة الميت فيما بعد الموت، فقد أقصاها «إخناتون» بداهة عن

تعاليمه، فصارت الجعل القلبية (الجعارين)، التى كانت مألوفة من قبل، لا ينقش فوقها التعاويذ السحرية لإخماد وحى «الضمير» عند المتهم، بل صارت آنئذ ينقش فوقها أدعية بسيطة موجهة إلى «آتون» طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام. وما ذكرناه عن «الجعل» (الجعارين) ينطبق تماما على الدمى (يوشبتى)، التى هى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالأعمال بدلا من الميت إذا طلب لذلك فيما بعد الموت فى الحياة الآخرة.

وإذا فكرنا مليا فيما ذكر نجد أن أمثال تلك التغييرات الأساسية تبسط أمامنا عظم المد الجارف من الفكر والعادات والتقاليد الموروثة عن الأقدمين، الذى تحول عن مجراه علي يد ذلك الملك الشاب الذى كان يقود ذلك الانقلاب، وأننا إنما نبدأ فى تقدير قوة شخصية «إخناتون» العظيمة عندما ندرك هذه الناحية من حركته الدينية إدراكا واضحا.

فقد كانت الوثائق الدينية قبل عهده تنسب عادة إلى الملوك القدامى والحكماء الأولين، وكانت قوة أى عقيدة ترتكز بوجه خاص على ما يعزى إليها من الأقدمية الساحقة وعلى قدسية العادة العريقة فى القدم. وقد كان معظم تاريخ العالم حتى عهد «إخناتون» عبارة عن سير الحوادث بمجرد سطوة التقليد الذى كان سلطانه لا يعارض، وليس لدينا استثناء بارز فى هذا المجال إلا ذلك الطبيب النطاسى والمهندس العظيم «إمحتب» الذى أدخل على فن العمارة البناء بالأحجار فأقام أول مبنى من الحجر، وهو ذلك القبر الهرمى الشكل الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد. وفيما عدا هذه الشخصية من المصريين الأقدمين لم يكن الناس سوى نقط من الماء فى تيار الحياة الجارف العظيم.

فإذا استثنينا «أمحتب» هذا كان «إخناتون» أول شخصية مستقلة ظهرت فى التاريخ ، فإنه قد أحرز مكانته السامية بنفاذ بصيرته وحسن تدبيره وتفكيره العقلى، ثم نهض بنفسه علانية وقام فى وجه كل التقاليد ونبذها ظهريا . ولم يلجأ

فى توطيد مذهبه الجديد إلى أية وسيلة من وسائل الأساطير والروايات العتيقة السائدة عن سلطان الآلهة، ولا إلى شىء من العادات القديمة التى اكتسبت قداسة بمر الدهور، بل اعتمد فقط على البراهين العتيدة الظاهرة الدالة بنفسها على سلطان إلهه وهى أدلة ظاهرة للعيان أمام الجميع.

وأما من جهة التقاليد، فإنه اجتهد فى القضاء عليها أينما وجد فى السجلات التى يمكن الوصول إليها أى مظهر مادى للآلهة الأخرى. على أن هذه السياسة، التى كان قوامها الهدم إلى هذا الحد، كان لابد حتما من أن تصادف معارضا قوية فتاكة. وسنفحص الآن بعض عوامل تلك المعارضة.

سقوط «إخناتون»

عصر انتشار التنسك الشخصي - الكهانة وخاتمتها

قامت حركة «إخناتون» بين شعب عظيم ما لبث أن وقف مجرى حياته فجأة، وحول إلى إتجاه غريب عنه بالرغم من قوة اندفاعه التي كانت لا تكاد تقاوم. فأصبحت أماكنه المطهرة وقد عبث بها، ومزاراته المقدسة المحاطة بذكريات آلاف السنين وقد أوصدت وطردت كهنتها، كما صودرت الأموال المربوطة على القرابين والمعابد، ومحى ذلك النظام العتيق جملة واحدة. ففى كل مكان كانت طوائف بأجمعها تسير مدفوعة بالغرائز التى تجرى فى أجسامهم منذ قرون لا يحصيها العد وفق عادات وأخلاق موروثة، ذهبوا إلى أماكنهم المقدسة ووجدوها كأن لم تغن بالأمس.

وهناك يقفون ذاهلى العقول أمام تلك المعابد القديمة الموصدة الأبواب. وتلك القاعات المبجلة عند القوم منذ الطفولة الأولى، والتى كانت فيما مضى تزخر بأفراح الجماهير أيام الأعياد المقدسة فى «أسيوط».

قد صارت الآن صامتة خاوية. وفى كل يوم، عندما كانت المواكب الجنائزية تعرج على حافة الصحراء وفوق هضبة الجبانة كانت تفاجأ بأن «أوزير» ذلك المعزى والصاحب العظيم والمحامى عن الأموات أمام كل خطر، قد نفى من البلاد ولم يعد فى إمكان أى إنسان أن يذكر اسمه. وحتى فى الأيمان التى كان يعقدها القوم، وهى التى اختلطت بدمائهم مع ألبان أمهاتهم فى الرضاعة، فإنه كان محظورا عليهم أن تخرج من شفاههم تلك الأسماء التى تكاد تنطق بها ألسنتهم عفوا.

فكان لابد ألا يشتمل اليمين القديم أمام القاضى فى المحكمة إلا على اسم الإله «آتون» فقط. فكان كل ذلك فى نظر القوم كما لو طلب الآن إلى رجل

من عصرنا أن يعبده «س» ويحلف باسم «ص». ولابد أن كثيرا من الكهنة المتذمرين الذين كانوا يكظمون غيظهم الشديد فى صدورهم، قد مزجوا سخطهم ذلك بسخط طوائف بأسرها من الباعة وأصحاب الحرف الحانقين، كالخبازين الذين لم يعودوا يكسبون عيشهم من بيع «فطائر الشعائر» - كما كان قديما- خلال أيام الأعياد التى كانت تقام فى المعابد، وكالصناع الذين لم يعد فى مقدورهم الآن بيع تعاويذ الآلهة القدامى عند أبواب المعابد، وكالحفارين المرتزقة الذين أصبح ماصنعوه من تماثيل الإله «أوزير» مكدسا تحت الأتربة المتراكمة فى عدة من المعامل التى صار عاليها سافلها. أو كحجارى الجبانة الذين وجدوا أن ما صنعوه من شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المنقولة من كتاب الموتى قد استبعد من مدينة الأموات.

وكالكتاب الذين كانت لفائفهم البردية المخطوطة المنقولة من كتاب الموتى أيضا - تعد إذ ذاك- لعنة لمن يستعملها إذا كانت مملوءة بأسماء الآلهة القدامى، أو إذا كانت تحمل كلمة الإله بصيغة الجمع.

وكرجال الكهانة المسرحيين والممثلين الذين صاروا يطردون من تلك الأماكن المقدسة فى الأيام التى اعتادوا فيها أن يمثلوا للشعب تمثيلية «المأساة الأوزيرية»، وكطوائف الحجاج المتذمرين فى «العرابة المدفونة»، ممن كانوا يعتزمون الاشتراك فى تلك التمثيلية التى تعبر عن حياة «أوزير» وموته ثم بعثه بعد الموت.

وكالمشعوذين الذين حرموا كل أسهم تجارتهم الخاصة بالاحتفالات السحرية التى كانت تستعمل بنجاح منذ أيام أقدم الملوك منذ ألفى سنة، وكالرعاة الذين صاروا لا يجسرون بعد أن يضعوا رغيفا وإناء من الماء تحت شجرة راجين بذلك الفرار من غضب الإلهة التى تسكن تحت الشجرة والتى كان في مقدورها أن تنزل المرض بأهل المنزل عند غضبها.

وكالفلاحين الذين صاروا يخافون أن ينصبوا تمثالا ساذجاً «لأوزير» فى الحقل ليطردوا به الشياطين المؤذية المسببة للجدب والقحط، وكالأمهات اللائى يخشين وهن يدللن أطفالهن عند الشفق أن ينطقن بتلك الأسماء المقدسة القديمة وبالصلوات التى تعلمنها فى طفولتهن ليبعدن عن صغارهن شياطين الظلام الراصدة لاختطافهم.

وفى وسط هذه البلاد جميعها، وقد عمتها ظلمة سحب التذمر الخانق، ضرب ذلك الملك الشاب المدهش هو ومن حوله من تلك الطائفة المؤيدة له ، سرادق دينه فى رائعة النها، وفى هدوء لاشعور معه بذلك الظلام الدامس، الذى شمل كل ما يحيط به والذى يزداد فى كل يوم ظلمة منذرة بعظيم الخطر.

فإذا رسمنا حركة «إخناتون» ، ومن خلفها ذلك التذمر الشعبى الذى سبق وصفه ، ثم أضفنا إلى تلك الصورة ما هو أقرب من ذلك خطرا وهو معارضة الكهانة القديمة السرية، ومعارضة حزب «آمون» الذى لم يكن بعد قد غلب على أمره تماما، وطائفة الجنود الأشداء الذين كانوا ساخطين على سياسة الملك السلمية فى آسيا وعدم إهتمامه بإدارة أملاكه الدولية والمحافظة عليها، أدركنا شيئا عن تلك الشخصية القوية لذلك القائد الأول في عالم الفكر فى التاريخ. وبعد حكمه أقدم محاولة لسيطرة آراء الحاكم التى لا تحفل بحالة الشعب الذى فرضت عليه تلك الآراء ومدى استعداده لقبولها.

وقد عبر عن مثل ذلك «ماثيو أرنولد» تعبيرا حسنا عند تعليقه على الثورة الفرنسية بقوله : «ولكن شدة الولع بالإسراع فى القيام بتطبيق سياسى لكل تلك الآراء الجميلة التى يمليها العقل كان سيىء العاقبة ...

فالأفكار لا يمكن أن تقدر فوق قيمتها ولا تعشق لذاتها، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى حدودها أكثر مما يجب، ولكن إذا نقلت الأفكار فجأة

إلى عالم السياسة والحياة العملية بقصد قلب نظام العالم بما تحويه من الأوامر، فإن هذا شيء آخر من جميع الوجوه» .

ولكن «إخناتون» لم يكن لديه سابقة ما مثل الثورة الفرنسية للرجوع إليها والاعتبار منها، بل كان هو نفسه أول ثائر عالمي، وقد كان مقتنعا كل الاقتناع بأن في مقدوره أن يضع في قالب جديد عالم الديانة والفكر والفن والحياة بعزم ثابت لا يقهر، وأن يجعل آراءه في الحال ذات تأثير عملي فعال.

وعلى ذلك قامت مدينة سهل « تل العمارنة» الجميلة، فكانت جزيرة خيالية للنعيم في وسط بحر من التذمر، بل كانت حلما مملوءا بالآمال الخيالية في عقل غاب عنه تماما أن الماضي لا يمكن محوه.

والعجب أن ظهور مثل ذلك الرجل لأول مرة لم يكن إلا في الشرق وفي مصر بالذات، حيث لم يكن يوجد رجل آخر يستطيع نسيان الماضي غير «إخناتون» على أن عالم أمم البحر الأبيض المتوسط العظيم، الذي كانت مصر تسوده حينذاك، لم يكونوا أحسن استعدادا لقبول ديانة دولية أكثر من سادتهم المصريين. ويذكرنا خيال «إخناتون» الدولي بآمال «الاسكندر الأكبر» الذي جاء بعده بألف عام، ولكنه كان سابقا لعصر الاسكندر بعدة قرون.

على أن الحقيقة التي كانت تحيط به والمركز المهدد، اللذين كان «إخناتون» يدعو حزبه لتبصرهما كل يوم ، قد صورا في وصف كتبه زوج ابنته «توت عنخ آمون» بعد موته بمدة ، حيث قال :

«وأغلقت معابد الآلهة من «إلفنتين» (يعني الشلال الأول) إلى مستنقعات الدلتا...

وهجرت أماكنهم المقدسة ونبت فوق دمنها المرعى

وصارت معابدهم كأن لم تغن بالأمس، وبيوتهم صارت طرقا معبدة والبلاد كانت فى مأزق سيىء.

وأما الآلهة فقد هجرت هذه الأرض

وإذا أرسل قوم إلى سوريا لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط.

وإذا دعا الناس إلها لإنقاذهم لم يجب دعوته، وكذلك إذا استعطف الناس إلهة لم تجب قط. فكانت قلوبهم فى أجسامهم عليها أقفالها».

وكان أتباع «إخناتون» فى مثل هذه الأحوال يدعون أن يستمر حكمه حتى «تصير البجعة سوداء ويصير الغراب أبيض، وإلى أن تتحرك الجبال وتسير ويجرى الماء من أسفل إلى أعلى».

أما سقوط ذلك الثورى العظيم فيحوطه الغموض التام. وكانت النتيجة المباشرة لسقوطه هى إعادة عبادة «آمون» والآلهة القدامى، فرضها كهنة «آمون» على «توت عنخ آمون» ، ذلك الشاب الضعيف زوج ابنة «إخناتون»، ثم أعادوا النظام القديم إلى ما كان عليه.

ونجد فى بيان «توت عنخ آمون» عن إعادة عبادة الآلهة إيضاحا شائقاً للحالة العقلية والدينية لقادة رجال الحكم بعدما اختفى «إخناتون». وقد أشار الملك الجديد إلى نفسه فى هذا البيان بقوله:

«إنه الحاكم الطيب الذى قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة (يعنى «آمون») والذى أصلح له كل ما كان مخربا حتى صار آثارا خالدة.

ومحيت من أجله الخطيئة فى الأرضين (مصر) وبذلك دامت العدالة (يعنى ماعت) ....

وجعل الظلم شيئا تمقته البلاد كما كان الحال فى البداية».

ويتضح من ذلك أن سقوط «إخناتون» اعتبر في نظر أعدائه المنتصرين إعادة للنظام الخلقى القديم «العدالة» (يعنى ماعت) وإقصاء للظلم. وبعد ذلك أخذ «توت عنخ آمون» يصف الحالة التى ورثها.

وهكذا لعنت ذكرى ذلك الرجل العظيم صاحب المثل الأعلى ، ولم يظهر اسم اخناتون قط فى القوائم الملكية العظمى المسجلة فوق الآثار بين أسماء كل ملوك مصر الماضين. وعندما كانت الإشارة إلى اسمه ضرورية فى الوثائق الحكومية فى عهد الفراعنة الذين أتوا فيما بعد كان يسمى «مجرم أخيتاتون».

وقد كان فرح كهنة «آمون» باسترداد سلطانهم فرحا عظيما، ولدينا أنشودة لآمون من ذلك العصر تصف لنا فوز أتباعه وتنطق بشماتتهم عند ماكانوا ينشدونها، حيث جاء فيها :

« إنك تصل إلى من يبغى عليك

والويل لمن يهاجمك.

مدينتك تبقى

ولكن من يهاجمك يهوى

وشمس من لا يعرفك تغيب ... يا آمون!

وأما من يعرفك فإنه يضىء

ومعبد من هاجمك فى ظلمة

بينما جميع الأرض فى نور.»

ففى هذه الأنشودة يظهر جليا حقد أعداء «إخناتون» المشبع بالتشفى والسخرية المملوءة بالشماتة عندما تقول :

« وشمس من لا يعرفك (يعنى إخناتون) تغيب .... يا آمون»

و «معبد من هاجمك (يعنى إخناتون) فى ظلمة».

وهكذا كانت حالة معبد الشمس «بتل العمارنة» الذى كان فنانو «إخناتون» يصورونه دائما مغمورا ببحر من ضوء الشمس ، بينما كان «آتون» المشع يشرق من فوقه وقد ضمه فى أحضان أشعته الفياضة.

ولم يبق الآن شيء من معبد ذلك النور الأبدى، الذى كان يومل ما ساطعا، إلا بقيا ضئيلة من أساسه. فهل بقى أى شىء آخر؟ وهل تجرى أقدم ثورة للعقل البشرى مجراها ولا تترك خلفها نتيجة باقية ؟

إن ثورة «إخناتون» كانت عنيفة فى طرقها أكثر ما يجوز ، فلم يخلد شىء مما أحدثته من الانقلاب. فالفن المدهش الذى أحدثته كان مهذبا أكثر مما كان يلزم فى التصور وقوة التعبير فلم يعش طويلا. وقد كشفت لنا معامل الملك التى كانت فى «تل العمارنة» عن منزلة حب ذلك الفن المدهش عند أولئك الفنانين الملكيين، وقد ترك عملهم هذا أثره فى فن العصر الذى جاء بعده، غير أن فنى النحت والتلوين لم يستردا قط تلك الحرية التامة التى نعما بها فى عهد «إخناتون» كما أنهما لم يلقيا ثانية جو تلك الحقيقة الدقيقة التى كانت تسود فن معامل «تل العمارنة».

وأما فى الأخلاق فلم يعد تعظيم الصدق بتلك الدرجة السامية التى بلغها فى تصور «إخناتون». ومما لا شك فيه أن تقديره العاطفى للجمال والفيض اللذين شاهدهما فى صنع الإله قد ترك أثرا لم ينس قط باكمله.

وليس من شك مطلقا فى أن تلك الأنشودة المصرية قد بقيت فى شكل ما بعد موت «إخناتون»، حتى عرفها العبرانيون بعد قرون مضت واستعملها مؤلف المزمار الرابع بعد المائة، وبذلك لم تختف جملة روح مذهب «آتون»، وسنجد فيما بعد برهانا آخر على تأثيرها، وعلى أن عنف هجوم إخناتون التعصبى على

التقاليد قد جعل من الطبيعى أن ينزل عليه وعلى حركته الانتقام الجزائى الذى كانت خاتمته الدمار التام.

فلا غرابة إذن فى أن تلك العاصفة حينما هبت اكتسحت على وجه التقريب كل أثر لأقدم باحث عن المثل الأعلى . وليس لدينا ما ينبئنا عنه إلا القليل فوق ماعثر عليه من بقايا مدينته، التى كانت بمثابة مركز منعزل للمعثل العالية، التى لم يدركها غيره أو يعرفها، إلا بعد مضى قرون عدة، حينما تألف أولئك البدو الذين كانوا إذ ذاك ينزحون إلى أقاليم «إخناتون» الفلسطينية وكونوا أمة، كان لها من المطامح الاجتماعية والخلقية والدينية ما كان من نتائجه ظهور أولئك الرسل العبرانيين وأصحاب المزامير، ليواصلوا السير بالروح والرؤيا اللتين سبقهم فيهما أصحاب الأحلام الاجتماعيون من المصريين الأقدمين.

وكان من جراء انهماك «إخناتون» فى معنويات ثورته العظيمة أن عكفته على التأمل والتيه فى الأحلام بقصر الشمس فى «تل العمارنة»، فى حين أن الحيثيين، وهم الأعادى الجدد أصحاب البأس الشديد في غربى آسيا، كانوا قد قاموا بفتح سريع لدولة مصر الأسيوية، وفى حين أن الكهنة والجنود بين شعبه نفسه قد قوضوا سلطان الأسرة الثامنة عشرة تقويضا تاما، وهى أسرة ذلك الفرعون ذات الصولة التى سادت الشرق القديم نحو مائتين وثلاثين سنة. وبهدم سلطان «إخناتون» بدأت مصر عصرا جديدا يختلف عما قبله. حقا إن بهاء عظمتها الظاهرى وذلك المظهر الزائع لثباتها الطويل المدى كان ذكرهما لا يزال يتردد فى تعابير الافتخار اللفظية التقليدية، ولكن الحالة الواقعية أخذت تضمحل بعض الشىء عندما اقترب القرن الرابع عشر ق.م. من نهايته.

وكان أصداء المذهب الاخناتونى لم ينقطع ترددها بعد، كما كانت علاقته بالتعليم الشمسى الهليوبوليسى القديم لايزال معترفا بها. بل أن نفس الأنشودة المعبرة عن الفوز (المفعم بالشماتة) الذى أحرزه كهنة «آمون» ضد مذهب

«إخناتون» تنم عن اتصالها بالمذهب الشمسى القديم وعن تعبيرها عن أبوه «رع» عندما تنقل إلى مديح «آمون» وتصفه بأنه «الراعى الطيب» و«النوتى»، وهى أفكار نبتت فى أثناء الحركة الاجتماعية للعهد الاقطاعى المصرى .

والواقع أنه بالرغم من العودة إلى عبادة «آمون» فإن الأفكار والاتجاهات التى نشأت منها ثورة «إخناتون» لم تختف جملة. حقا لم يكن فى الإمكان اتباعها على أنها توحيد يشمل القضاء على الآلهة الأقدمين، غير أن نواحى «آتون» الإنسانية والخيرية التى تتمثل فى عنايته بكل البشر كانت قد استولت على خيال الطبقة المفكرة، ولذلك نجد نفس تلك الصفات التى كانت لآتون تنسب آنئذ إلى «آمون» ، حيث كان الناس يرتلون له ما يأتى :

« رب الصدق ووالد الآلهة

خالق الناس وبارئ الحيوان

رب كل كائن

ومنشئ شجرة الحياة

خالق الأعشاب ورازق الماشية لتحيى».

وهذه الأنشودة التى اقتبسنا منها هذه الأسطر لا تتردد فى تسمية ذلك الإله الممدوح باسم «رع» أو «آتوم»، دالة بذلك على أن حركة «آتون» قد تركت السيادة التقليدية لإله الشمس «رع» الهليوبوليسى دون مساس بها. وكذلك نجد فيها قطعة أخرى تحتوى على ترديد لأصداء مذهب «آتون» ، حيث جاء بها ما يأتى :

« سلام لك ! يا رع يارب الصدق

الذى أمر فوجدت الآلهة

يا آتوم الذى خلق الناس

والذى حدد صورهم

وخلق أرزاقهم

والذى ميز لون (كل جنس) عن الآخر

والذى يسمع دعوة من فى الأسر

والذى تتدفق من قلبه الرحمة عندما يدعوه إنسان

والذى يخلص الضعيف من المستكبر

والذي يفصل بين الضعيف والقوى.

رب المعرفة الذى في فمه الأمر السائد

والذى يأتى النيل حبا فيه

رب الحسن عظيم الحب

الذى بمجيئه يحيا البشر».

وكذلك بقيت الجمل الدالة على التوحيد منبثة بين سطور هذه الأنشودة بلا تردد، وإن كانت الأنشودة دائما تشير إلى الآلهة. فتقول :

«الفريد فى ذاته، الخالق لكل كائن

الواحد الأحد، خالق كل موجود

والذى نشأ الناس من عينيه

وخرجت من فمه الآلهة

خالق الأعشاب للماشية

وشجرة الحياة لبنى الإنسان

والذى يضع قوت السمك (فى) النهر

والطيور التى تجوب السماء

والذى يمنح النفس مايوجد فى البيضة

ويجعل ابن الدودة يعيش

والذي يضع مايعيش عليه البعوض

وكذلك الدود والحشرات

والذى يمد الفيران بحاجاتها فى أجحارها

والذى يعول الطيور فى كل شجرة فتعيش.

سلام عليك يا من خلقت كل ذلك

أنت يا واحد يا أحد يا ذا الأذرع العديدة

وأنت (يانائم) صاح بينما كل الناس تنام

ساع فى البحث عن الأشياء الطيبة لماشيته

فالماشية جميعها تقول : السلام عليك

وكل مملكة تقول : العزة لك

بمقدار علو السماء وعرض الأرض وعمق البحر ».

على أنه توجد أنشودة لأوزيرمن نفس ذلك العصر، يخاطب فيمابماياتى :

«أنت أب الناس وأمهم

وهم يعيشون من نفسك ».

وفى كل ذلك نجد روح التضرع الإنسانى ، التى سبق أن ظهرت ، كما ذكرنا آنفا، إبان التعليم الاجتماعى فى العهد الاقطاعى المصرى. فإن تفضيل المستضعف على المستكبر المتجبر، والأمر السائد والمعرفة، وهى صفات مقصورة على الملكية والإلهية، قد عثرنا عليها كلها من قبل فى تلك المقالات الاجتماعية لأمثال «إبور»، بل أيضا فى الوثائق الحكومية مثل الوثيقة الخاصة بنصيب الوزير الأكبر فى الأسرة الثانية عشرة من ملوك المصريين القدماء. وكذلك القول بأن الإله هو الأب والأم لمخلوقاته يرجع بالطبع إلى ما كان عليه الاعتقاد فى مذهب «آتون».

ومع أن أمثال تلك الأناشيد لاتزال كذلك تحتفظ فى ثناياها بالعقيدة العالمية، والتغاضى عن فكرة القومية، وبالنظر الواسع البعيد المرمى، مما كان شأنه بارزا فى تعاليم «إخناتون» ، فإنها بالرغم من ذلك تكشف لنا عن ثقة فردية بطيبة الإله، فهى بذلك برهان هام على ظهور الوجدان الشخصى وتكشف لنا عن بداية عصر جديد ساد فيه التدين الإنفرادى الذاتى.

وعندما نمضى فى انعام النظر فى المعتقدات البسيطة الخالية من تعقيدات رجال الدين فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر، أى فى القرنين اللذين أعقبا عصر «إخناتون»، نجد أن ثقة المتعبد فى عناية إله الشمس بكل المخلوقات حتى بأقل مخلوقاته قد تطورت إلى روح تعبدية وشعور فياض بالاتصال الذاتى بالإله، مما ظهرت بوادره من قبل فى قول «إخناتون» لإلهه : «وإلى الآن فإنك مازلت فى قلب».

وعلى ذلك نجد أن التأثير الباقى لمذهب «آتون» وعقائد العدالة الاجتماعية للعهد الإقطاعى، قد بلغ أوجه فى أعمق تعبير، عن الروح الدينية الخالصة، وصل إليه رجال مصر. ويضاف إلى ذلك أن هذه المعتقدات، ذات العلاقة الوثيقة الشخصية بين المتعبد وإلهه، بالرغم من تأصلها أولا فى تعاليم فئة قليلة

محصورة، قد صارت آنئذ بمرور القرون، ومع التطور التدريجى البطىء، منتشرة انتشارا واسعا بين طبقات الشعب. وكانت النتيجة انبثاق فجر عصر التقوى الانفرادية والإلهام الباطنى الذى يناجى به المرء ربه.

والواقع أنه تطور هام ، وأنه كالكثير من الانقلابات، يعد أقدم تطور رأيناه من نوعه فى تاريخ الشرق القديم، وبالنسبة لهذا الموضوع بالذات، فى تاريخ البشرية جميعا .

وفى مقدورنا أن نتعقبه فى «طيبة » وحدها، ولا يخفى ما فى ذلك من الامتاع الشائق، ما دام فى مقدورنا أن نتعرف ما كان يجول فى نفوس عامة الشعب الذين كانوا يمثلون الطرقات والأسواق، والذين حرثوا الحقول وزرعوها ونهضوا بالصناعات، والذين أمسكوا بدفاتر الحسابات وقاموا بأعمال السجلات الرسمية، والذين قطعوا الأخشاب ورفعوا المياه وغيرهم من الرجال والنساء الذين وقع على كواهلهم عبء الحياة المادية العظيم فى تلك الحاضرة الشاسعة للدولة المصرية القديمة فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م.

فنجد – مثلا– أن كاتبا فى أحد مخازن الخزانة فى جبانة «طيبة» يدعو «آمون » فيقول :

« الذى يأتى إلى الصامت

الذين ينجى الفقير

ويعطى النفس لكل إنسان يحبه

امدد إلىّ يدك

نجنى، اسطع على

لأنك تخلق قوتى

... ...

أنت الإله الأحد لا إله غيرك

فأنت نفس رع الذي يشرق فى السماء

وآتوم خالق البشر

الذى يسمع دعاء من يدعوه

والذى ينجى الإنسان من المتكبر

والذى يجرى النيل لأجل من هو بينهم

والهادى لجميع الأنام.

وعندما يشرق يعيش البشر

وقلوبهم تحيا عندما يرونه

والذى يمنح النفس ما فى البيضة

والذى يجعل البشر والطيور تعيش

والذي يرزق الفيران بحاجاتها فى أجحارها

وكذلك الديدان والحشرات».

فالإله الذى يوجه عنايته إلى كل شىء حتى المحافظة على العصافير، مثل إله «عيس»، رأى فيه أهل «طيبة» موئلا يشكون إليه مصائبهم وهمومهم فى حياتهم اليومية، واثقين فى شفقته وحنانه وفيضه. كذلك نصب أحد الرسامين الذين يقومون برسم المناظر الجنازية فى جبانة «طيبة» لوحة تذكارية فى أحد مزارات الجبانة ، تبين كيفية نجاة نجله من مرض ألم به بفضل «أمون» وشفقته العظيمة . فكان «آمون» فى نظره الإله الجليل الذى يسمع شكاية الشاكين،

ويجيب الفقير المعذب إذا استغاث به، ويمنح النفس من قوس الدهر قناته.
ويقص علينا قصة رحمة الإله «آمون» فيما يأتى :

« الحمد لآمون

إنى أنظم الأناشيد باسمه

وإنى أقدم له الحمد

بقدر علو السماء

وعرض الأرض.

وأتحدث عن قوته

إلى الذى يسير فى النهر منحدرا

والذى يسير فى النهر صاعدا.

إحذره!

وكرر ذلك للابن والبنت

وللصغيروالكبير

وخبر بذلك الجيل بعد الجيل

من الذين لم يولدوا بعد

وأخبر بذلك السمك فى النهر

والطيور فى السماء

وكرره لمن لا يعرفه حتى الآن

وللذى يعرفه.

احذره!

أنت يا آمون إنك رب الصمت

الذى يأتى عند استغاثة الفقير.

وعندما استغيث بك فى كربتى

ففى الحال تأتى وتنجينى.

ليتك تمنح نفسا من يقوس الدهر قناته

وليتك تنجينى وأنا فى الأغلال.

وعندما يستغيث الناس بك

فإنك أنت الذى تأتى إليهم من بعيد».

«إن «نب رع» «رسام آمون» فى مدينة الأموات وهو ابن «باى» رسام «آمون» فى مدينة الأموات، قد أقام هذه اللوحة التذكارية باسم ربه «آمون» رب «طيبة» الذى يأتى لإجابة الفقير المستغيث به، مقدما له التسبيحات باسمه لعظم قوته ومقدما التجميدات أمامه وأمام كل الأرض لأجل الرسام «نخت آمون»، وذلك عندما رقد مريضا مشرفا على الموت، وكان فى قبضة «آمون» بسبب خطيئته.

«لقد وجدت أن رب الآلهة أتى كريح الشمال وأمامه الهواء العطر حتى ينجى الرسام «نخت آمون» ابن رسام «آمون» فى الجبانة «نب رع» وابن سيدة البيت«بشد».

ويقول: «بالرغم من أن العبد اعتاد ارتكاب الخطيئة فإن الرب من شأنه الرحمة. لأن رب «طيبة» لايصرف كل اليوم غاضبا، فإذا غضب لحظة فإن ذلك الغضب لايدوم طويلا. بل يلتفت إلينا فى شفقة. إن «آمون» يلتفت إلينا بنفسه.

ثم يقول : «سأضع هذه اللوحة باسمك وسأسجل هذه الأنشودة بكتابتها فوقها، إذا شفيت لى الرسام «نخت آمون» . هكذا خاطبتك وقد أجبتنى، والآن انظر إلى وقد انجزت وعدى. إنك رب من يدعوك. أنت الذى ترضى عن الحق والعدالة. أنت رب «طيبة».

صنعها الرسام «نب رع» وابنه «خاى».

وهكذا صار إله الشمس أو «آمون» الذى قام مقامه، ملاذا للمحزونين. فهو الذى يسمع الشكوى ويجيب دعاء من يستغيث به، والذى يحضر عند ذكر إسمه، وهو الإله المحب الذى يسمع الصلوات، والذى يمد يده إلى الفقير وينجى اليائس. ويمثل ذلك الأم المصابة التى أهملها ابنها «ترفع ذراعيها للإله فيسمع استغاثتها».

وصارت آنئذ العدالة الاجتماعية التى نشأت فى عهد الدولة الوسطى المصرية حقا يطالب به كل فقير أمام الإله، الذى صار هو نفسه قاضيا عادلا لا يقبل الرشوة، رافعا للحقير، حاميا للفقير، غير باسط يده للغنى.

وعلى ذلك يدعوه الفقير فيقول : «يا آمون اصغ لمن يقف وحيداً فى المحكمة فقيرا وخصمه غنى، فتضطهده المحكمة (حيث تقول) : «فضة وذهبا للكتاب !وثيابا للخدم» ولكن «آمون يستحيل بنفسه إلى وزير أول ليجعل الفقير فائزا، فيتضح أن الفقيرعلى حق وينتصرالفقيرعلى الغنى. فأنت يا «آمون» أنت النوتى فى المقدمة الذى يعرف الماء، وأنت سكان السفينة، والذى يعطى الخبز لمن لا خبز عنده، ويحفظ خادم بيته حيا».

ولأن الإله وقتئذ هو «آمون رع» الذى كان فى الصورة الأولى ملكا فإننا نجده يخاطب هكذا . «يا إله الألهة. أنت يا وزير الفقير الذى لا يأخذ المكافأة النيئة، والذى لايقول «إيت بشهود»، أنت «آمون رع» الذى يعدل على الأرض

بأصبعه، والذى كلماته أمام القلب، فيجعل النار مأوى لمن يرتكب الخطيئة فى حقه والمحق مثواه فى الغرب (يعنى النعيم فى الدار الآخرة)».

فالغنى والفقير يحيث بهما غضب الإله على السواء إذا وقعت منهما الخطيئة، واليمين الذى يصدر استخفافا أو كذبا - يجلب غضب الإله فيصيب الحانث المرض أو العمى، وذلك ما لا يمكن النجاة إلا إذا أتبع المذنب ذلك بالتوبة والندم والتجأ إلى التذلل والخضوع راجيا عطف إله .

وهذه أول مرة نجد فيها أن «الضمير» قد تحرر تماما، فيتعذر المذنب ويندم على جهله وارتكابه الإثم، فنراه يقول :

« أنت يا واحد يا من لا أحد غيره

أنت يا إله الشمس الذى لا مثيل له

ياحمى الملايين ومخلص مئات الألوف

الذى يحمى من يستغيث به

أنت يارب «هليوبوليس» (عين شمس)

لا تعاقبنى على ذنوبى العديدة

فإنى أمرؤ جاهل بنفس جسمه

إنى رجل لا عقل له لأنى طيلة اليوم أتبع أهوائى

كما يتبع الثور علفه.»

ونلاحظ هنا على الفور الفرق الشاسع بين هذا الاعتراف وكتاب الموتى الذي لاتعترف الروح فيه بأى خطيئة بل تدعى البراءة التامة. على أنه فى هذا الموقف الذى يعترف فيه الإنسان الآن بخطيئته مع إبداء غاية التذلل والخضوع، نجد أنه على اتصال باطنى بالإله ليلا ونهاراً، كما نرى فيما يأتى :

« تعال إلىّ يارع» حور أختى حتى ترشدنى»

وكما أننا نجد العبرى التقى يحب «بيت المقدس» موطن ربه منذ القدم، كذلك كان ذلك المصرى القديم يولى وجهه فى تعبده شطر مدينة الشمس العظيمة التى نشأ فيها مذهب آبائه منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة ، حيث يقول :

« إن قلبى يتطلع إلى «هليوبوليس»

فإن قلبى يشرح وصدرى يفرح

وتضرعاتى يستمع إليها

وحتى صلواتى اليومية وأناشيدى الليلية

وتوسلاتى ستزدهر فى فمى لأنها سمعت هذا اليوم ».

فالأناشيد القديمة كانت تتألف من أوصاف الحوادث الخرافية، وكلها أمور خارجية بالنسبة لحياة المتعبد، حتى أنه كان فى كل إنسان أن يبتهل إلى الإله بنفس الصيغة التى يبتهل بها غيره. فصارت الابتهالات تأتى مظهرا لإحساسات باطنية، أى أنها تعبير يراد به الاتصال الذاتى بالإله، وهو اتصال يرى فيه المتعبد أن إله يغذى الروح كما يغذى الراعى قطيعه، ونجد ذلك فى القول الآتى:

يا آمون أنت يا مخرج القطعان فى الصباح

ومرشد المتألم إلى المرعى

وكما يقود الراعى القطعان إلى المرعى فأنت كذلك تفعل

يا آمون خذ بزمام المتألم إلى الطعام لأن آمون رع يرعى من يتكل عليه.

يا «آمون رع» إنى أحبك وقد ملأت قلبى بك

وستنجينى من أفواه الناس فى اليوم الذى يفترون فيه على الكذب

لأن رب الحق يعيش فى الحق

وإنى لن أستسلم للخوف الذى فى قلبى

لأن ما قاله « آمون» يعلو ويزدهر.»

حقا إنه كانت توجد وسائل ظاهرية ومادية تزيد فى هذا الاتصال الروحى بالإله، وقد رأينا الرجل العاقل يحث غيره بحكمة علي «الاحتفال بعيد الإلهه وأن يعيد الاحتفال فى مواسمه، لأن الإله يغضب على من يتعدى حدوده».

ومع ذلك فقد كانت أعظم الوسائل تأثيرا لكسب عطف الإله ورضاه هو التدبر والتفكر فى أناة وصمت مع الاتصال الباطنى، وهو ما كان يراه حتى الحكماء الذين يميلون إلى عدم الخروج جملة على العادات التقليدية، كما نرى فيما يأتى:

«لا تكن كثير الكلام ، فبالصمت تنال الخير...

أما من جهة أمر الإله فلعنته فى رفع الصوت.

تعبد بقلب سليم كل كلمة من كلماته باطنة

فبذلك تنال ما تحتاجه ويسمع كلماتك

ويتقبل قربانك.»

بمثل هذه الروح كان يتجه المتعبد إلى ربه كأنه عين ماء روحانية منعشة. ومن ذلك أيضا :

« أنت أيتها البئر العذبة للصادى فى الصحراء.

إنها موصدة لا تفتح للثرثار- ولكنها مفتوحة للصامت

فعندما يأتى الصامت فإنه يجد البئر».

على أن هذه الروح - روح الاتصال الصامت - التى يرجى بها طيبة الإله الرحيمة، لم تكن وقفا على فئة قليلة مختارة، ولا على جماعات الكهنة المتعلمين. فإننا نجد فوق أحقر الآثار لعامة الشعب أن «آمون» كان يدعى بالذى «يأتى للصامت» أو «رب الصامت» كما لاحظنا ذلك فيما تقدم.

وقد كان من جراء ذلك التطور النهائى للشعور الدينى الذى توجت به ثورة «إخناتون» الدينية والعقلية، كما توجت به كذلك عقائد العدالة الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعى، أن وصلت الديانة المصرية القديمة إلى أسمى تطوراتها.

وأما فى الأخلاق وفى موقف الإنسان تجاه الحياة فإن الحكماء استمروا فى المحافظة على روح الاحترام لأسمى المثل العليا العملية. وهو موقف ندرك فيه تقدما محسوسا على التعاليم العتيقة للآباء، فصارزوا يحفلون بحسن الذكر وطيب الأحدوثة ويتشددون فى المحافظة على السمعة، فيقول الحكيم (انى): «دع كل مكان تحبه نفسك معروفا عند الناس».

وكانت أحوال السكر وعيشة الخلاعة تعرض بكل نتائجها الوخيمة أمام الشباب، كما كانت أخطار الفحش والفجور تعرض للشباب بدون تحفظ وبصراحة عارية من كل ستر أو حجاب، حيث يقول :

احذر المرأة الأجنبية التى لا تعرف فى بلدتها،

ولا تنظرن إليها،

ولا تعرفنها فى جسدها.

لأنها فيضان (من الشر) عظيم وعميق لا يعرف الرجل دورانه.

والمرأة التى يكون زوجها بعيدا جدا، تقول لك فى كل يوم أنى جميلة.
وعندما تكون بعيدة عن الأعين تقف (أمامك) لتوقعك

فى أحابيلها ... بالعظم الجريمة التى تستحق الموت
عندما يرتكبها الإنسان ولو لم يعلم بذلك الملأ.
لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب
هذه الخطيئة أن يرتكب كل خطيئة.

أما أطايب الحياة ومتاعها فيجب على الإنسان أن ينظر إليها بتحفظ فلسفى، ومن الحماقة أن يعتمد الإنسان على الثروة الموروثة ويظنها مجلبة للسعادة : «لا تقل إن جدى من أمى له بيت فى ضيعة كذا وكذا، فإنه حين تأتى للقسمة حسب الوصية مع أخيك لا يكون نصيبك إلا حظيرة فقط».

فإن مثل هذه الأشياء فى الواقع لا دوام لها ولا ثبات:
« وهكذا نجد أن الناس إلي الأبد لاشىء،
فواحد غنى وآخر فقير ...
ومن كان غنيا فى السنة الماضية قد صار شريدا هذا العام.
ومجرى الماء فى العام المنصرم قد صار هذا العام مكانا آخر.
والبحار العظيمة تصير جافة والشواطئ تصبح بحاراً».

فنجد فى هذا الكلام مثلا لذلك الاستسلام الشرقى للمقابلة بين أحوال الحياة الدنيوية الذى كان على مايظهر قد نما وانتشر بين كل الشعوب الشرقية القديمة.

ولما انتقل الشعب المصرى القديم إلى ألف السنة الأخيرة ق.م. كان نمو الضمير الذى تتبعنا مجراه فى نحو ألفي عام، قد وصل إلى نهايته بتحقيق هذا الانتقال العميق الهام، الذى كان يمهد لمجيئه من عدة قرون. فإن الوازع الباطنى الذى نما فى الأصل من المؤثرات الاجتماعية ثم زاد تطوره خلال قرون مضت

فى التفكير العميق، قد صار المتعبدون يعترفون الآن من غير تحفظ بأنه أمر الإله نفسه.

وقد رأينا أن هذه الفكرة كانت قد ظهرت قبل ذلك بنحو ٥٠٠سنة، أى فى بداية عهد الامبراطورية المصرية. ولكن فى هذا العصر الذي هو عصر الورع الشخصي، صار الضمير هو صوت الإله بدون أدنى شك، وذلك ما لم يحدث من قبل مطلقا.

وإزاء ذلك لم يكن هناك بالطبع مجال لإخفاء الخطيئة أو إنكارها بعد وقوعها من المخطئ؛ وإذ كان المؤمن يشعر بأن كل أمره معلوم عند ربه فقد أصبح يضع نفسه - بدون أدنى تحفظ - فى يد الله المرشد والمهيمن على كل حياته وحظوظه. ومع أن رضاه المجتمع كان لا يزال أمرا هاما، وضغط المؤثرات الاجتماعية محسوسا، فإن ذلك صار فى المرتبة الثانية إزاء الإله العليم بكل شيء.

وهذا الموقف الجديد قد كشف لنا غطاؤه فى رسالة عظيمة يمكننا أن نسميها « حكم» أمينموبى»، وبرديتها محفوظة الآن بالمتحف البريطانى.

وكما كان يحدث كثيرا فى مثل تلك النصائح التى كانت تصدر من رجال الحكمة المصريين القدماء، قد اعتبرت حكم «أمينومبى» أيضا- ملقاة من هذا الحكيم على ابنه. وهى فى نظمها ووضعها تعد أكثر ترتيبا من أى وثيقة أخرى من نوعها مما فحصناه من تلك الوثائق للآن. فقد قسمت بنظام إلى ثلاثين فصلا وكل فصل منها خاص بموضوع معين، وتبدو مقسمة إلى مقطوعات كل منها يشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية، كما يوجد بعض مقطوعاتها مؤلفا من سطرين فقط. ويلاحظ أنه لم يبذل فى تأليف تلك الحكم أى جهد لتنسيق فصولها أو ترتيبها ترتيبا منطقيا.

ولقد قال الأستاذ «لنج» أحد أساتذة جامعة كوبنهاجن، وهو ممن لهم الفضل الأكبر فى فهم ذلك المقال المدهش، عند تناوله الموازنة بين «أمينموبى» وغيره من أسلافه السابقين : «إن آراء «آمينموبى» الدينية أعمق بكثير من سابقاتها، كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة عظيمة تفوق فيها آراء أسلافه من الحكماء، إذ كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة، وأن فكرة الموت والخلود الأبدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل، وأن الله وحده هو الذى يعطى الغنى والحظ. فى حين أن الشعور بالإدانة لله وحده هو فى نظر «آمينموبى» العامل الفاصل فى كل تصوراته عن الحياة وسلوكه فيها».

ولذلك كان «آمينموبى» يتمسك أمام ابنه دائما بهذه النظرة إلى الحياة الدنيا فى المعاملات الشخصية والرسمية، مع الشعور التام بتلك المسئولية أمام الإله فى كل حين. ومما يزيد فى أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير والإحساس برقابة الله، وذلك فى تعاليم مفكر مصرى فى القرن العاشر ق.م.، وقبل أن يكتب أى شىء من التوراة، أننا نعرف الآن أن حكم «آمينموبى» هذه قد ترجمت إلى العبرية وقرأها العبرانيون. وإن قسما هاما منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم.

وإننا نجد حكيمنا هذا عند تناوله موضوع تهيئة ابنه للإنخراط فى سلك الوظائف الحكومية المصرية، يبين له تلك المغريات التى قد تدفعه إلى استغلال الفرص الرسمية ابتغاء المكسب من ورائها. فنراه يعددها الواحدة تلو الأخرى، ويحذر ابنه الشاب من الاستسلام لمثل تلك المغريات. فإذا كان فى وظائف مسح الأرض فنصيحته له هى :

«لا تزحزحن الحد الفاصل الذي يفصل (بين) الحقول

ولا تكن جشعا من أجل ذراع من الأرض

ولا تتعدين على حد أرملة

وارقب أنت من يفعل ذلك فوق الأرض

فبيته عدو للبلد

وأهراؤه تخرب

وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله

ومتاعه يعطاه غيره.

لا تطأن حرث الغير

وخير لك أن تبقى بعيدا عنه

أحرث الحقول حتى تجد حاجتك

وتتسلم خبزك من جرنك الخاص بك.

وإن المكيال الذي يعطيكه الله خير لك

من خمسة آلاف تكسبها بالبغى.

والفقر مع القناعة والرضا عند الله خير

من الثروة (المغصوبة بالعدوان) القابعة فى الخزائن

وأرغفة لديك مع قلب فرح خير لك

من الثروة مع التعاسة».

ومن المهم أن نلاحظ أن أمينموبى كان لا يزال يحترم الرأى العام فى مثل تلك المواقف، لأنه عندما ينصح ابنه بمراعاة الأمانة فى السجلات المالية يقول له:

« وخير لك المدح (تناله) كفرد يحبه الناس

من الثروة (المجموعة) فى الخزائن »

وذلك لأن الغنى مع «الضمير» الشاعر بالذنب لا قيمة له:

«وما فائدة الملابس الجميلة

إذا كان الإنسان باغيا) (متعديا على غيره) أمام الله ؟»

ولما كان موظفو بيت المال عند المصريين القدماء لهم علاقة كبيرة بالموازين والمكاييل، فقد اهتم بها «أمينموبى» كثيرا، حيث يقول لابنه :

« لا تجعلن إحدى كفتى الميزان تحيد غشا

ولا تعبث بالموازين

ولا تنقصن من عدد (أنصبة أو مقادير) مكاييل القمح

ولا ترغبن فى مكاييل الحقل (لأنها ربما كانت عظيمة كما فى أيامنا)

ولا ترغبن عن مكاييل الخزانة (لأنها كانت بالطبع أنقص من مكاييل الحقل) فقوة الجرن أكبر

من القسم (اليمين الرسمية للحكومة) بالعرش العظيم.

وهذه المقارنة المبهمة الواردة في السطر الأخير «ضرب مثلا يحتمل أنه يعنى به أن قوة المخزن الملكى الضارة المفسدة أكبر فى تأثيرها من «يمين الإخلاص الرسمى للعرش» الذى يقسم به الموظف عند تسلمه عمله. والاستقامة فى الأعمال الرسمية. لابد من مراعاتها بالدقة فى الصغيرة والكبيرة، ولذلك يبدأ الحكيم فصلا آخر بالكلمات الآتية :

« لا تطمعن فى متاع رجل حقير».

ثم يعقبه مباشرة بابتداء آخر قال فيه:

« لا تطمعن فى متاع رجل عظيم».

ثم نجد كذلك أن «أمينموبى» كان يهتم كثيرا بمحافظة ابنه على الاستقامة التى لا تراخى فيها ولا هوادة فى المعاملات الشرعية وفى التقاضى أمام المحكمة، حيث يقول :

« لا تجبرن رجلا على الذهاب أمام المحكمة

لأنك لن تجعل العدالة تلتوى

فلا يتجه وجهك نحو الملابس البراقة (يعنى التى يلبسها الخصم)

بينما تطرد من تكون ملابسه قذرة بالية.

لا تأخذن العطايا من القوى

ولا تضطهدن الضعيف من أجله،

فالعدالة هبة عظيمة من الله يهبها من يشاء.

فقوة من كان مثله (أى مثل الله)

تنجى المكتئب من ضرباته (يعنى ضربات القاضى).

أعط المتاع أصحابه

وبذلك تبغى لنفسك الحياة.

ومع أن قلبك يعمر فى بيتهم (يعنى فى بيت الملاك الذين تحابيهم).

يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد».

وإن الكلام الرزين والأخلاق السلسة تعتبران من الأمور الهامة فى نظر حكيمنا، كما أن التهديدات الصاخبة الجوفاء لا يقوم لها وزن أمام تدابير الله

ضد أعدائنا :

« لا تقولن : لقد وجدت رئيسا قويا

والآن يمكننى أن أهاجم رجلا فى مدينتك.

ولا تقولن : لقد وجدت حاميا والآن يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت.

فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير الله

وأنك لا تدرك الغد.

ضع نفسك بين يدى الله

إلى أن يهزمهم صمتك (أى إلى أن يهزم الله أعداءك بسبب صمتك).»

ثم يستمر «أمينموبى» فى نصائحه حاضا ابنه على التباعد عن الصراحة الخارجة عن الحد، بل إنه يعود كثيرا فيحذره من هذه العادة الخطرة فى كل مقاله، فمن ذلك قوله :

« إذا سمعت خيرا أو شرا

فاتركه وراءك غير مسموع.

وضع الكلام الحسن على لسانك

وأما الكلام السيئ فابقه مخفيا فى جوفك».

وبنفس هذه الفكرة التى تجول فى ذهن ذلك الحكيم نراه ينصح ابنه بألا يسترق السمع فى البيوت العظيمة، وأخذ يحثه بهذه المناسبة على مراعاة التواضع فى مسلكه إذا كان على مائدة رجل عظيم. وقد قدمت مثل هذه النصيحة وببعض تعبيراتها قبل مقال «أمينموبى» بنحو ثمانية عشر قرنا، وهى تلك الحكم التى ألقاها «بتاح حتب» على ابنه فى عهد الأسرة الخامسة.

ولأنها حكمة بالغة فى السلوك الواجب نحو الرؤساء، ظل المصريون القدماء يحترمونها مدة تنوف على ألفى سنة، فقد وجدت سبيلها إلى الحياة العبرانية، وهى تعد من غير شك أقدم قطعة جاءت فى التوراة.

ونجده كذلك يحذر ابنه الشاب من المراءاة والمعاملة ذات الوجهين فى كل علاقاته مع العظماء، حيث يقول :

لا تطلقن قلبك من لسانك

فإنك بذلك تحظى بنجاح كل مقاصدك،

وسينجم عن ذلك أنك تكون رجلا ذا وزن أمام الجمهور

ومقبولا بين يدى الله،

لأن الله يمقت الرجل صاحب القول الكاذب

وأكبر ما يمقته الرجل ذو القلبين».

وإذا كانت مصاحبة العظيم تغرى بالنفاق، فإن مصاحبة المتسرع والأحمق خطرة أيضا، لأنها تؤدى بالإنسان إلى فحش القول وهجره :

« لا تؤاخين الرجل الأحمق

ولا تلحقن عليه فى المحادثة».

والمقال على هذه الوتيرة مفعم بالتحذير من الرجل المشاغب والرجل المستهتر. وأما الأخلاق الفاضلة فهى أخلاق الرجل المتحلى بالرقة والتواضع وضبط النفس، على عكس تلك الأخلاق الذميمة التى تعرف عن الرجل الأحمق. وقد وضع «أمينموبى» فى بداية نصائحه مقابلة بين الأخلاق وأضدادها الذميمة بهيئة شجرتين، إحداهما شجرة برية نشأت فى الغابة ولا يتعهدها أحد، والأخرى تزدان بها الحديقة. وفى ذلك يقول :

«إن الرجل الأحمق، الذى يخدم فى المعبد
مثله كمثل شجرة نامية فى الغابة.
ففى لحظة يفقد أغصانه
ويكون مصيره إلى مرفأ الأخشاب
وينقل بعيدا عن مكانه
والنارمثواه.»
وأما الرجل الحازم حقا! الذى يضع نفسه جانبا (حيث يجب)
فمثله كمثل شجرة باسقة فى الحديقة
يفلح وتتضاعف ثمرته
ويثمر فى حضرة سيده
فظله وارف وثمرته أكلها حلو
ويجد فى الحديقة مصيره.»

وينهى «أمينموبى» عن الاشتباك مع السفيه، فيقول : «لا تشتبكن فى نزاع مع سفيه اللسان.»

ويحض الشاب على عدم الدخول فى علاقة ما مع أمثال أولئك الرجال. والكلمة التى عبر بها ذلك الحكيم عن الرجل الطائش والمشاغب والأحمق هى النعت «حار»، وفيها ما يوضح المعنى وزيادة. وهذه الكلمة المصرية القديمة معادلة للكلمة العبرية التى ترجمت بها فى كتاب الأمثال من الكتاب المقدس وهى «المستخف»، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نجد أن التسمية التى استعملها ذلك الحكيم أيضا للدلالة

على «المتواضع» و«الضابط لنفسه» هى «الصامت حقا» الذي يعامل الجميع بلطف وتواضع. وهذا المعنى يتصل اتصالا وثيقا بالعابد المتبتل الصامت الذى تقدم ذكره فيما مضى، وهو يماثل على ما يظهر «الرجل الحازم» الذى نجده فى الأمثال العبرية. ومثل ذلك الرجل يعامل الأرملة التى يجدها تتلقط فضلات الحقل برفق وأناة، كما ذكر «أمينموبى» ابنه بأن :

« الله يحب الذى يدخل السرور على الرجل المتواضع

أكثر من الذى يحترم الرجل العظيم».

وهذه الروح الرقيقة العطوفة هى التى تنصح بأن الفقير والمحزون لا يعاملان بالقسوة، كما يقول الحكيم :

« لا نضحكن من رجل أعمى ولا تهزأن بقزم

ولا تؤذين زمنا (يعنى مقعدا)

ولا تستهزئن برجل يكون فى يد الله (يعنى بين يدى الله)

ولا تقسون عليه عندما يبقى (يعنى يجور أو يذنب).

وأما البشر فهم من طين وقش (يعنى اللبن المصنوع من الطين مخلوطا بالتبن)

والله هو بانيهم.

فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم

فيخفض ألفا كما يشاء

وألفا يجعلهم مشرفين

ما داموا فى الحياة الدنيا.

وأنه لسعيد من يصل إلى الغرب (يعنى الدار الآخرة)

وهو ناج فى يد الله».

وإن عدم ثبات أحوال الإنسان ، وتوقفها على مشيئة الله تعالى ، قد حدا «بأمينموبى» إلي تحذير ابنه من الاعتزاز بالثروة الزائلة : حيث قال له :

«لاتدعن قلبك يجرى وراء الثروة

ولا تجهدن نفسك فى طلب المزيد

عندما تكون قد حصلت (بالفعل) علي حاجتك.

وإذا جاءت إليك الثروة من طريق السرقة

فإنها لا تمكث عندك زمن الليل،

فحينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن فى بيتك بعد

لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الأوز وصعدت إلى السماء أعبد «أتوم» إله الشمس عندما يشرق

وقل امنحنى سلامة وصحة،

وسيمنحك ما تحتاجه مدى الحياة

وتأمن الخوف».

والواقع أن هذه النتيجة الحكيمة التى يقول فيها «أمينموبى» إن «الثروة (المغصوبة) تصنع لنفسها أجنحة» وتطير بعيدا، وصورها لنا فى تلك الصورة البارزة عن الثروة الأرضية التى لا تدوم وتكون عرضة للزوال والفناء، نعرف لها مثيلا فى صورة أخرى انحدرت إلينا عن طريق محرر «كتاب الأمثال» العبرى وانتشرت فى حياة العالم الغربى بعد ظهورهابين سكان مصر بثلاثة آلاف سنة.

ويرى حكيمنا أن الاعتماد على مثل تلك الموارد الدنيوية الزائلة لايجدى نفعا، وأن الضمان الوحيد لذلك هو الله، فيجب أن نعبده، وبذلك «تنجو من الخوف». وعلى هذا فإن راحة البال والتخلص من الخوف يمكن الحصول عليهما بالاعتماد على الله وحده فقط.

وعلى ذلك نجد هذا الحكيم المصرى القديم يقول فى أنبل فقرة من نصائحه لابنه.

« لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد،

لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد؟

فالإنسان لا يعلم ماسيكون عليه الغد.

الله فى كماله

والإنسان فى عجزه

والكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها.

على حين أن أعمال الله مختلفة الاتجاه.

لا تقولن : لست أحمل خطيئة

ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع.

أما الخطيئة فأمرها عند اللهوهو الذي يختمها بأصبعه.

وليس فى يد الله إنسان كامل

ولا يقف العجز حائلا أمامه

فإذ أجد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال

فإنه فى لحظة يهدمه (بنفسه).

كن رزينا فى عقلك، وثبت قلبك

ولا تجعلن من لسانك سكانا،

فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة

فإن رب الجميع هو ربانها».

فهل كان هناك عندما نصح السيد المسيح (عليه السلام) تلاميذه بقوله : «لا تفكروا فى الغد أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات؟ إنه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا قط الإجابة على هذا السؤال، غير أن حكم «أمينموبى» قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطئ ألنيل وبخاصة فى فلسطين. على أن أعظم الأجزاء انتشارا من حكم «أمينموبى» قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولا تزال مستعملة بين ظهرانينا.

وقد أوضح الأستاذ «زيته» أن السطرين الغامضين فى ظاهرهما، وهما الخاصان باختلاف اتجاه كلمات الناس وأعمال الله، لا يمكن أن يكون المقصود منهما سوى الفرق الشاسع بين كلمات للناس (أى مقاصدهم) وما يتلوها من أفعال الله (سبحانه وتعالى)، وعلى ذلك تكون الترجمة ببعض التصرف هكذا: «الكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها وأعمال الله تختلف فى اتجاهها». وتكون المقابلة هنا على البدهية هى بينر «كلمات الناس» و«أعمال الإله». وعندما يذكر أنهما «يختلفان» فإن المعنى المقصود يكون بداهة «أنهما يختلفان عن بعضهما». وعلى ذلك يكون لدينا هنا المثل العالمى فى أقدم صورة له: «الإنسان يريد والله يفعل مايريد».

وإن مثل ذلك الانتشار الواسع للرأى المصرى القديم عن علاقة الله بالإنسان يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير التطور الخلقى المصرى

القديم لا فى تاريخ الإنسان القديم فحسب بل فى تاريخ المدنية الغربية أيضا.
ولما كان بحث ذلك الموضوع يجب أن تتألف منه خاتمة هذا الكتاب، فيجب قبل أن نتناوله بالبحث أن نلقى نظرة قصيرة على المراحل الأخيرة من ذلك التفكير الخلقي المصرى القديم قبل أن يحشر سكان وادى النيل إلى معمعة عاهليات البحر الأبيض المتوسط الأسيوية.

ذلك بأنه بعد سقوط العاهلية المصرية في القرن الثانى عشر قبل المسيح كانت قوى حياة البلاد الداخلية والخارجية قد اضمحلت وفقدت كل تأثير لها فى إزكاء نار التفكير الخلقي مرة أخرى حتى يقوم بأى نشاط حيوى يسمو به إلى أكثر مما وصل إليه، بل قد حل مكان ذلك ركود وجمود قاتلان لا يأبهان لشىء من عوامل النمو والنشاط.

وكأنما اعترى حياة تلك الأمة التى كانت ممتلئة نشاطا وحيوية ذهول خامد. ولذلك نجد أن التطور الذي أعقب ذلك الأوان كان مجرد ظواهر رسمية آلية لا تتناول أى تقدم فى التفكير والإنتاج العقلى. وكانت قوة الكهانة بصفتها ذات نفوذ سياسى قد جعلت الملك «تحتمس الثالث» فى القرن الخامس عشر ق.م. ينصب رئيس كهنة «أمون» رئيسا لجميع كهنة مصر فى ذلك الزمان، أى أنه صار الرئيس الدينى للدولة.

ومع أن هذه «البابوية الأمونية» قد قاست عنفا شديدا على يد «إخناتون» فإنها قد استردت فيما بعد كل ما فقدته، بل زادت عليه كثيرا حتى أن «رعمسيس الثانى» سمح لوحى «أمون» أن يرشده فى تعيين الكاهن الأعظم للإله. ولذلك كان من السهل فى تلك الأحوال على الكاهن الأعظم لأمون أن يجعل منصبه هذا وراثيا.

ولما لم يكن فى مقدور البلاد أن تقاوم تلك القوة السياسية الكهنية، التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة، وكانت البلاد دائما فريسة لتعديها الاقتصادى،

فإن مصر هوت بذلك إلى الانحطاط بسرعة، إلى أن صارت حكومة كهانة فقط، حتى أنه حوالى سنة ١١٠٠ ق.م. سلم الفرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التى صارت وقتئذ هى حكومة المعبد.

وفى خلال التطور الطويل، الذى كان من جرائه استيلاء طائفة الكهنة على إدارة شئون العرش، ليست المظاهر الخارجية والرسمية للتدين من حلل الفخامة والأبهة مالم تصل إليه من قبل أى قوة دينية فى تاريخ التدين للقديم، ولذلك فإن معابد ذلك العصر ستبقى دائما من أروع الآثار الباقية من العالم القديم.

والواقع أن تلك القصور «الإلهية» الضخمة قد رفعت من قيمة الشعائر الدينية الظاهرية إلى مستوى لم تتمتع به من قبل ، لا فى فخامة مبانيها فحسب بل فى معداتها العظيمة الرائعة أيضا.

وقد صار آنئذ «آمون طيبة» وهو متوج بتاج من العظمة لم يسمع بمثله فى بذخ الشرق قط، فى أيدى كهنته الماكرين، مجرد مصدر للقرارات السياسية والإدارية، بل إن الأحكام القضائية المعتادة كان يصدر الفصل فيها بإيحاء من الإله، كما كان غير ذلك من أمور الوصايا والهبات خاضعا كذلك لما يوحى به الإله. فكأن الدعاء القديم الذى كان يبتهل به المظلوم إلى الإله «آمون» أن يستحيل بنفسه إلى وزير للرجل الفقير قد نفذ تنفيذا حرفيا بحتا، وأفضى إلى نتائج لم تكن فى حسبان الذين قاموا بتأليف هذا الدعاء.

أما الذين بصفته قوة شخصية خلقية فقد بقى فى قلوب الفقراء وحثالة الشعب من المتدينين فقط، من أمثال أولئك الذين عثرنا على أدعيتهم الناطقة بورع أصحابها وإيمانهم الشخصى على أحقر اللوحات المقدمة للنذر فى جبانة «طيبة»، وهذه الألواح المنذورة، مجتمعة مع نصيحة «آنى» وحكم «أمينموبيش قد كشفت لنا عن روح عصر ساد فيه الورع الشخصى وكان خاتمة تطور الآراء الخلقية عند قدماء المصريين.

وكان ذلك بعد مرور بضعة أجيال من ألف السنة الأخيرة ق.م.، وفى نفس الوقت الذى انهارت فيه المملكة العبرانية المتحدة، التى لم يقم بالحكم فيها غير ثلاثة ملوك ثم انقسمت إلى مملكتين. ومن المهم جدا أن نلاحظ أن التطور الخلقى عند قدماء المصريين - كسائر عناصر ثقافتهم - قد وقف وانتهى أمره تقريبا قبل بداية الحياة القومية العبرانية، بعد أن سار فى تدرجه نحو خمسة وعشرين قرنا.

وعندما انتقل ذلك الانحطاط المصرى القديم الذي دام نحوا من خمسمائة سنة إلى دور إصلاح ونهضة بعد سنة ٧٠٠ ق.م. كان عصر الابتكار والتجديد في النمو الباطنى للتدين والأخلاق قد مضى وقضى عليه قضاء أبديا.

فبدلا من أن نجد نشاطا فياضا يبدو من تلقاء نفسه فى شكل آراء ومظاهر جديدة، كما كان الحال فى بداية كل تلك العصور العظيمة التى مرت بها البلاد، فإننا نجد أن مصر قد رجعت إلى الماضى للأخذ بما كان لها فيه من مجد تالد، وحاولت عن رغبة أن تصلح الحكومة وتعيدها إلى ماكانت عليه حال المملكة المنقرضة فى تلك الأيام الخالية قبل أن تحدث عصور الامبراطورية المصرية تلك التغييرات والتجديدات. إذ كانت مصر القديمة فى نظر هؤلاء القوم - كما بدت لهم من خلال ضباب ألفى سنة مضت- صورة أسبغت عليها نعمة الكمال المثالى الذي سادها من قبل فى عهد حكم الآلهة. ولا شك أن جماعة الرجوع إلي القديم، عند محاولتهم بعث الديانة والمجتمع والحكومة من جديد على الأسس القديمة، كان لابد أن يعترضهم على الدوام ذلك التقلب الذى لا مناص من حدوثه- سواء أشعروا به أم لم يشعروا- بسبب أحوال الشعب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فإنه لم يكن فى الإمكان محو ألفى السنة التى انقضت منذ عصر الأهرام.

ولذلك كانت الأحوال الواقعية الجديدة تبدو صارخة من خلال ذلك الستر القديم الزائف الذى أحيطت به الشئون الحاضرة. ولما عثر على حل تلك المعضلة، كان العلاج مماثلا لما حاوله العبرانيون فيما بعد عندما وقعوا فى مثل هذا المأزق، فنسب القوم للعناصر الجديدة كذلك ماضيا مجيدا سحيقا، كما نسبت كل مجموعة التشريعات العبرية إلى سينا «موسى» (عليه السلام) وبذلك أنقذوا هذا الإحياء النظرى.

فكتابات الأهرام الجنازية القديمة، وهى ما نسميه «متون الأهرام»، بعثت من جديد، وبالرغم من أنها لم تكن فى الغالب مفهومة كانت تنقش فوق التوابيت الحجرية الضخمة. وكذا «كتاب الموتى» الذى كان لا يزال يحدث فى تأليفه بعض التغيير، قد ظهرت فيه آثار واضحة تنم على هذه الحركة.

وفى مزارات المقابر أيضا ذات الصور الجديدة نجد المناظر السارة المأخوذة من حياة الشعب فى المستنقعات والمراعى وفى المعامل ومرافئ بناء السفن، وكلها صورة نقلت بدقة مدهشة عن المناظر المنقوشة فى مقابر عصر الأهرام التى بنيت على هيئة المصاطب.

وقد وصلت الدقة فى نقلها لدرجة أن الباحث لأول وهلة كثيرا ما يشك فى تاريخ الأثر الذى نقشت فوقه. والواقع أن شخصا من رجال «طيبة» يدعى «أبا» أرسل فنانيه الرسامين إلى أحد القبور التى من عهد الدولة القديمة بالقرب من «أسيوط» لينقلوا عنه النقوش التى يريدها فى القبر الذى كان يعده لنفسه فى «طيبة».

وكان كل السبب فى ذلك أن صاحب القبر القديم كان يسمى هو الآخر«أبا»أيضا.

كذلك رأينا فيما تقدم فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن «المسرحية

المنفية» قد وصلت إلينا لأن الفرعون الأثيوبى الذى وجد فى القرن الثامن ق.م. أخذته روح التقوى فأمر بإعادة تدوين كتاب قديم، كان مكتوبا على بردية من عهد الأسر القديمة، باعتبار «أنه من صنع الأجداد وأنه قد أكله الدود»، فنقش على حجر من البازلت الأسود يوجد الآن بالمتحف البريطانى.

وهكذا جرى البحث وقتئذ بشغف عن الكتابات واللفائف القديمة المقدسة التى بقيت من عهد تلك الأيام الخالية، حيث كانت تجمع وفوقها تراب تلك العصور الماضية ثم تفرز وترتب. لقد صار الماضى القديم صاحب السيادة العليا. ولاشك أن الكاهن الذى كان يحبذ ذلك الماضى العتيق كان فى الحقيقة يعيش فى عالم من الخيالات، حيث لم يكن لكل ذلك أى معنى حيوى لأهل العصر الذى يعيش فيه.

ويمثل ذلك كانت نفس الروح الرجعية فى «بابل» هى السائدة. وقت أن كانت امبراطورية «نبو خاد نزر» (بختنصر) هى الأخرى تقوم بحركة بعث جديد. كما سادت نفس تلك الفكرة أيضا فيما بعد بين العبرانيين العائدين من المنفى. فكأن العالم قد أخذ يطعن في السن، وكان القوم يتحدثون بولوع وشغف عن أيام شبابه الغابر.

على أن هذا المنهاج الذى كان يجرى مجراه للاحتفاظ بالقديم هوى بذلك التدين العتيد عند المصريين القدماء من حضيض إلى حضيض أبعد منه غورا نحو الإنحلال والجمود ، حتى آل أمره إلى ما وجده عليه المؤرخ الإغريقى «هردوت» من مجرد شعائر ظاهرية جامدة وتقاليد كهنوتية لا حصر لها، كانت تؤدى بحذق ودقة، اشتهر المصريون بسببهما بأنهم أكثر شعوب العالم تمسكا بالدين. غير أن تلك الشعائر لم تعد بعد تعبر عن حياة باطنية نامية متطورة، كما كانت عليه الحال فى تلك الأيام الخالية، وقبل أن تخمد الحيوية المبتكرة عند الجنس المصرى.

هذا وقد كنا نتتبع فيما تقدم على وجه عام نمو تلك الأفكار الخلقية عند ذلك الشعب المصرى العظيم، الذى ظل يتطور خلال مدة تنوف على ثلاثة آلاف سنة تتنازعه فيها القوى الباطنة فى ذلك الإنسان القديم مع العوامل المحيطة، حتى هيأت تصوره للقوى الإلهية وتكييفه لمقاييس السلوك البشرى. فالإلهية كما كان يدركها الإنسان فى كل مكان من العالم الشرقى القديم، هى من نتائج الخبرة البشرية، والآراء القديمة عن الإله ليست إلا تعبيرا عن أحسن ما أحس به الإنسان وتخيله ممثلا فى أرقى كائن تصوره.

وقد وصلنا الآن إلى مركز يمكننا من الإجابة كنه تلك الوراثة للأفكار الخلقية والدينية، أهى من صنع وإنتاج المدنية العبرانية فقط؟ أم أن التاريخ يكشف لنا أن إرثنا الخلقى قد تكون إلى درجة عظيمة فى عصر أقدم بكثير من العهد العبرانى، وأنه قد انحدر إلينا على شكل إنتاج تألف من طائفة من المدنيات العظيمة، وعلى ذلك بعد أعلى وأسمى تعبير انتجته الحياة الإنسانية القديمة برمتها، أى أنه يعد أسمى رسالة قام بتقديمها إلينا والدنا «الإنسان القديم».



المؤلف فى سطور

بكر محمد إبراهيم .

* مواليد السيدة زينب بالقاهرة .

* واعظ ورئيس أنصار السنة - سلفى العقيدة .

* صدر له أكثر من ٥٥٠ كتاباً .

* عضو اتحاد الكتاب .

*** **أساتذته :**

تتلمذ على يد كثير من العلماء أمثال الشيخ إبراهيم جلهوم ، والشيخ محمد عبد المطلب صلاح خطيب الأزهر الأسبق ، والشيخ إسماعيل صادق العدوى خطيب الأزهر السابق ، والشيخ الشعراوى ، وكثير من علماء الجمعية الشرعية وأخيراً علماء أنصار السنة ، ومنهم الشيخ فتحى عثمان ، والشيخ أحمد فهمى ، والشيخ أحمد غريب ، والشيخ حسن البنا ، والشيخ أحمد سالم، والشيخ صفوت نور الدين ... وغيرهم .

* قام بنشر دعوة الإسلام بمدينة السلام ، ومصر الجديدة ، ودار السلام، والسيدة زينب .... وغيرها من الأحياء .

* يكتب فى مجلة التوحيد التى تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية ، يقوم بإلقاء دروس فى علوم التاريخ الإسلامى والتفسير والعقيدة والفقه فى المساجد المختلفة .

* وله مؤلفات فى الشريعة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ والسياسة والأدب واللغة .... وغيرها .

* بدأ فى الخطابة فى مساجد القوات المسلحة منذ ثلاثين عاماً.

* له تلاميذ كثيرون أخذوا عنه العلم .

* والده - رحمه الله - من مواليد محافظة الغربية ، وكان يعمل بالتجارة.

* يعمل مدير إدارى باحدى الوزارات .

* مقيم حاليا بمدينة السلام .

اصداراته لمركز الراية للنشر والاعلام

١- موسوعة التاريخ الإسلامى - صدر منها حتى الآن [الدولة الأموية - الدولة العباسية - الدولة العثمانية ، وجارى استكمالها إن شاء الله].

٢- قصص القرآن - موسوعة .

٣- وصايا قيمة من الكتاب والسنة .

٤- بكاء العمرين - عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز - مجلد .

٥- ١٣٥ قصة من قصص الصالحين .

٦- التداوى بالأعشاب.

٧- عمر بن الخطاب - مجلد .

٨- نوادر الظرفاء .

٩- برمودا والشيطان - مجلد .

١٠- قصص بنى إسرائيل فى القرآن والتوراة والتلمود .

١١- تاريخ العرب عبر القرون .

١٢- أباطرة التاريخ - ج١ ، ج٢ .

١٤- من قصص القرآن للأطفال .

تحت الطبع :

١- موسوعة الأسرة - مجلد .

٢- تاريخ الفراعنة - ج١ ، ج٢.

٣- عجائب وغرائب الفراعنة .
٤- الأسرار الخفية فى حياة الفراعنة .
٥- سقوط ١٥ إمبراطورية عبر التاريخ .
٦- من روائع التراث الجنسى عند العرب .
٧- السحر العجيب فى اللبن الحليب .
٨- من عجائب ماء زمزم .
٩- من عجائب صلاة الاستخارة .
١٠- مثلث برمودا والأطباق الطائرة .
١١- موسوعة التداوى بالأعشاب .
١٢- السيدة فاطمة الزهراء .
١٣- السيدة خديجة أم المؤمنين .
١٤- أخطر ١٠ قادة فى التاريخ .
١٥- حروب غيرت مجرى التاريخ .
١٦- عجائب صلاة الفجر .
١٧- غرائب وعجائب الشعوب .
١٨- الحضارات القديمة .
١٩- تاريخ الجزيرة العربية - ج١ ، ج٢ ، ج٣ ، ج٤ .
٢٠- عجائب وغرائب الحيوان .
٢١- موسوعة البلدان .
٢٢- أشهر الأحكام القضائية .
٢٣- أشهر المأكولات والحلويات .
٢٤- موسوعة الأسماء ذكور وإناث

الفهرس

الموضوعات	صفحة
المقدمة .	٣
ملخص تاريخ مصر القديمة .	٥
عصر ما قبل التاريخ .	٦
حضارات عصر ما قبل التاريخ .	٨
الفترة المبكرة من عصر الأسر .	١٣
الدولة القديمة (٢٦٨٦ ـ ١٢٨١ ق.م تقريبا).	١٦
العصر الوسيط الأول (٢١٨١ ـ ٢٠٥٠ ق.م تقريباً).	٢٤
الدولة الوسطى (٢٠٥٠ ـ ١٧٨٦ ق.م تقريباً) .	٢٨
عصر الانتقال الثانى .	٣٢
الدولة الحديثة.	٣٧
الفترة المتأخرة من عصر الأسر.	٥١
العصر البطلمى .	٦٣
أشهر ملوك مصر الفرعونية (حتشبسوت زعيمة النبيلات)	٦٥
السيادة العالمية وأقدم عقيده للتوحيد (اخناتون).	١١٠
الليلوالإنسان.	١٢٣
الليل والحيوان .	١٢٤
النهاروالإنسان.	١٢٤
النهار والحيوان والنبات .	١٢٥

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة
النهار والمياه .	١٢٥
خلق الإنسان .	١٢٥
خلق الحيوان .	١٢٦
الخالق العالى .	١٢٦
رى الأراضى فى مصر وخارجها	١٢٧
فصول السنة .	١٢٨
السيطرة العالمية .	١٢٩
وحى الملك .	١٢٩
الرعاية العالمية.	١٣٠
سقوط إخناتون .	١٥٢
التعريف بالمؤلف .	
الفهرس .	